حسين فوزي

سندباد عصري

جولات فى المحيط الهندى

القاهرة — ١٧ — ١٩٣٨

مطبعة الاعتماد


القطر المصري
السودان
الحبشة
أفريقيا
مستعمرة كينيا
بلاد الصومال
شبه جزيرة العرب
حضرموت
عمان
خليج عمان
خليج الفارسي
خليج عدن
البحر العربي
المحيط الهندي
جزيرة سوقطرا
أرخبيل اللكاديف
أرخبيل المالديف
جزيرة سيلان
كولومبو
بومباي
جزائر سيشيل
جزيرة ماهي
مومباسا
جزيرة زنجبار

حسين فوزي

سندباد عصري

جولات في المحيط الهندي

القاهرة — ١٧ — ١٩٣٨

مطبعة الاعتماد

درجت على حب الغرب ،
والإعجاب بحضارة الغرب ،
وقضيت أهم أدوار التكوين من عمري في أوروبا ،
فتمكنت أواصر حبي ، وتقوت دعائم إعجابي .
فلما ذهبت إلى الشرق ، عدت
إلى بلادي وقد استحال الحب والإعجاب
إيمانا بكل ما هو غربي

حسين فوزي

A

Ma Compagne

إلى

أصدقائي

مقدمة

فى موسم من مواسم الصيف بالأسكندرية كان ركن من أركان الميناء مسرحا لحركة ربما بدت عادية لو لم يكن مدارها سفينة صغيرة قيل بأنها تسافر إلى المحيط الهندى لتضرب فى طوله وعرضه تسعة أشهر . ولولا أن مشحونات تلك السفينة تختلف عما تشحنه السفن عادة ، فهى مجموعة آلات علمية وشباك وصناديق ملأى بآلاف القنينات الفارغة أو المحتوية على مواد كيماوية . ولو لم يكن الرجال القائمون بالشحن والترتيب نخبة من شبيبة رقيقة الحواشى ، ناعمة الأيدى . يظهر على أفرادها أنهم من خريجى الجامعات ، ويغلب فيهم ذوو الشعر الأصفر والعيون الزرقاء . قيل بأنهم أعضاء بعثة أجنبية جاءت تستعير سفينة مصرية بضباطها وبحارتها ، وتشترك مع بعض الاخصائيين المصريين فى دراسة مستفيضة لمياه البحر الأحمر والمحيط الهندى وما تكنه من أسرار حية وجامدة .

وذات يوم وفد بعض الرجال الرسميين على مرسى السفينة الصغيرة ، وصعدوا إلى باخرة كبيرة مرابطة إلى جانبها وتناولوا عليها الشاى بين أصوات الخطباء والتصفيق احتفاء وتوديعا للبعثة الأجنبية . ثم نزلوا إلى السفينة الضئيلة ، وتجولوا فى أنحائها لحظة لم يحتملوا بعدها ضيق الممرات وازدحامها بالآلات والشباك

فعادوا إلى سياراتهم الفخمة مارين بصفين من البحارة يؤدون لمقامهم التحيات العسكرية . ما عدا واحداً منهم قصد أن يعرف كيف يعيش أربعون نفساً فى هذا السجن العائم مدى تسعة أشهر فى عرض البحر . فاكتفى بزيارة طابق الاخصائيين وسط السفينة ، منحدراً إليه على سلم صغير كأنه هابط إلى سرداب . وقد خرج الرجل دهشاً من تلك المغامرة الكبرى على ظهر سفينة كانت إلى جانب الباخرة الراسية حذاءها كأنها مولود صغير وضعته تواً .

وسافرت السفينة الضئيلة فى اليوم التالى وهى تشهد المودعين بصفيرها على أنها مغادرة حقاً مياه الأسكندرية إلى مياه البحر الأحمر والمحيط الهندى .

وفى أواخر شهر مايو من السنة التالية كان بعض الرجال الرسميين ينتظرون عودتها فى لنش ذهب لاستقبالها عند مدخل ميناء الأسكندرية . وما إن ألقت الباخرة الصغيرة مراسيها فى نفس الموضع الذى غادرته منذ تسعة أشهر حتى انطلقت فى الفضاء أصوات التصفيق والزغاريد صادرة من بعض ذوى الجلاليب والنساء المؤتزرات بالسواد .

كان من نصيبى أن أركب هذه السفينة طوال رحلتها الهندية . وأن أشترك فى مباحثها العلمية ، وأشرف على صحة ركابها . ولقد كتبت فى موضع آخر القصة الرسمية للرحلة ، ومقامها من البعثات البحرية التى جابت بحار العالم تكشف عن أسرارها منذ أواخر القرن الماضى ،

«وأثرها فى البيئات العلمية الأجنبية ، وفيما كسبته مصر من طيب الأحدوثة نتيجة لصبر أبنائها وحسن بلائهم .

وكتابى اليوم لا علاقة له بتلك القصة الرسمية . وإنما هو صفحات ضمنتها صوراً وخطرات أوحت بها إلى جولاتى فى أنحاء المحيط الهندى ، وحياتى على ظهر السفينة . دون ادعاء أو حذلقة فنية . بسيط العبارة يسرد الحوادث ويصف بعض المناظر لا لقيمة خاصة بها ، بل تبعا لما أثارته فى نفسى من إحساس ، وفى ذهنى من تفكير. فكانت للسفينة ورجالها وهرتها «مشمشة» قيمة تعادل معبد «رامشيفارام» وصخرة «ماهابالى پورام» . واتخذ شعورى بزيارة منفى الزعيم فى المحيط الهندى أهمية أكثر من وصف جزر سيشل ذاتها . وكان الخروف المذبوح فى جنح الليل ، والراقصة البربرية ، وابنة البنجاب ، وقردة محطة «مادورا» ، ونفاق الهر المتقشف ، سواء بسواء عندى وعمارة المعابد الهندوسية ، وتعاليم البوذا ، ووصف الشعاب المرجانية ، وعادة الدفن عند المجوس . كما كانت الشرارة التى ألهبت قلبى يوم لقاء الغادة الزمردية فى «مومباسا» أقوى من كل ما شعرت به أمام شجرة «البودى» المقدسة ، أو بين ركام المدينة المدفونة «أنوراد ابورا» . كل هذا دون وحدة فنية مرسومة مقدما ، ودون تعمل أو افتعال . فلا توجد فى تلك الفترة من حياتى وحدة فنية أكثر من وحدة السفينة وركابها . ولقد أرسلت القلم لأحدث أصدقائى بما رآه بصرى أو أدركته بصيرتى . ولعلهم فاهمون بعد هذا

سر الجاذبية التى وجهت حياتى فى طريق لايزال يستخرج منهم على
مر السنين بعض الدهشة .

لذا أرجو القارئ أن لا يحاول تحميل هذه الصحائف أكثر
مما تحتمل . وأن يتقبلها على علاتها صورة من نفس صاحبها يقدمها
إلى أصدقائه ومعارفه . فاذا استطعت أن أصطحبه وأصطحبهم فى
رحلتى الفكرية ، وأخفف عنه وعنهم ملل الساعات الطويلة ، كما
استطعت أن أسكن آلام رفقائى بالسفينة ، فقد نجحت فى أطيب
المهمات إلى نفسى : أن أرتاد مع أصدقائى عالما يشعرون فيه
بشعورى .

الأسكندرية فى أكتوبر سنة ١٩٣٧

فهرست

عبث

II

صِوَر

III

جد

IV

مشاعر

فهرست الصور

خريطة:

١

عبث

مانجوبير

على قيد عشرة كيلو مترات من كراتشى عاصمة السند مزار أسلامى لولى اسمه مانجوبير . حول مقامه ينابيع ماء بارد وساخن ، وبركة يعيش فى مياهها أكثر من مائة تمساح ، وقد أحيطت بسور يطل منه الزائر على تلك الزواحف المفزعة وهى ممدة على شاطىء البركة كأنها جذوع أشجار متحجرة ، لا تتحرك إلا حين تلقى إليها النذور من الأغنام المذبوحة . ومن حسن حظى أن لم أر يوم زيارتى نذرا ولا ناذرا .

ويقال بأن مانجوبير كان فقيرا هندوسيا (سادهو) ، ولا سبيل إلى معرفة حقيقة أمر هذا الشيخ وسط الخرافات التى حيكت حوله ، فالأنسانية الدنيا التى تعمه فى ظلام الجهالة تحيط حتى الديانات السامية بخرافات تكاد تلقى اليأس فى نفوس الأنسانية العليا التى تسعى أبدا إلى الأخذ بيد البشرية .

وتتنازع الشيخ مانجوبير خرافتان :

الأولى : أن أصل هذه التماسيح عائلة رجل شرير استولى على أموال اليتامى والأيامى إلى آخر ما هنالك من ضروب الشرور التى يظهر أنها كانت تلقى فى العصور الخالية عقوبات أشد صرامة مما نعرف فى عصورنا المادية . وجاء الشيخ مانجو پير فدعا على المعتدى وأسرته أن يتحولوا إلى تماسيح، وقد كان له ما أراد .

ويظهر أن فكرة التناسخ — محور العقائد الهندية — من أقدم العقائد البشرية . ولا أحسب شعبا لم يعتقد بها فى حقبة من تاريخه . وأساس أغلب الديانات الفطرية عبادة حيوانات أو جمادات يعتقد عبادها أن قد تقمصت فيها أرواح طيبة أو شريرة .

وفى مصر آثار من العقائد الفطرية احتفظ بها الشعب رغم الديانات الكبرى التى اعتنقها .

فهذه أشجار مقدسة (كالمندورة) ، وأبواب مبروكة (كبوابة المتولى) ، لا يزال يؤمها الشعب كما نذهب إلى ڤيشى وماريِنباد ، إذ يعتقدون فيها البرء من كل داء أو بأساء وقد تحاول الحكومة أو أصحاب الأرض قطع الشجرة فيتحدث إليك محاسيبها بالحلم الذى أقض مضجع مأمور القسم ،

أو كيف صرخت الشجرة ثم شخرت والمنشار يحز فيها ، وكيف شوهد الدم ينزف من جذعها المقطوع .

ثم من لا يذكر خرافة أصل القرد ؟ حكاية المرأة الشريرة أمام الفرن ، واعتدائها على حرمة الخبز باستعماله لغير الغرض الذى خبز لأجله .

ليست فكرة التناسخ والتقمص إذن غريبة عن البشرية إنما الغريب بقاؤها بمثل القوة التى هى عليها فى معتقدات الهنود .

أما الخرافة الثانية عن مانجوپير فهى :

كانوا أربعة من الأولياء : مانجوپير ، كالاندار لال شاه باز ، الشيخ فريد ، بهاء الحق ، اجتمعوا يوما ليتنافسوا فى الكرامات .

ضرب مانجوپير الأرض فتفجرت عين ماء بارد .

وضربها شاه باز فتفجرت عين ماء ساخن .

ولما أن وجد الشيخ فريد باب الاجتهاد فى ضرب باطن الأرض قد أقفل ، أخرج مشطا وجعل يمشط شعره ، فكان القمل المتساقط منه يتحول إلى تماسيح بمجرد نزوله فى مياه عين الشيخ مانجوپير .

أما الشيخ بهاء الحق فحين رأى باب الاجتهاد قد أقفل أطلاقا ، أخرج من عبه حفنة من نوى البلح ... وجعل يزرعها فى الأرض بكل بساطة وهدوء .

ومع أن هذا الشيخ الأخير يذكرنى قسرا بالبلياتشو حين يخرج عقب البهلوانات البارعة ليدخن سيجارا أو يستلقى على قفاه ، إلا أننى احترمت الشيخ بهاء الحق أجل احترام . فكأنه يقول (ويختص بالقول زميله المقمل الذى حول صئبانه تماسيح) : أيا كانت كرامتكم أيها الزملاء فهى لا تعدل قدرته تعالى ولا حكمته حين يخرج من هذه النواة نخيلا يحمل للأجيال القادمة رطبا شهيا .

وإنى لأشارك سيدى بهاء الحق هذا التفكير العالى ، ولو ان طبعى الحاد يودنى أن ألتفت إلى شيخ القمل وأقول له :

— اتفخس عليك ولى .

الريكشو

الفيتون عربة صغيرة تسير على عجلتين يجرها حصان ، والريكشو فيتون صغير يجره إنسان ، ولا أدرى إن كانت شفقتى على إنسان الريكشو ناشئة عن آدميته انحطت إلى مقام الدابة ، أم هى لأنه وقد دخل فى عداد الأنعام نال من نفسى ذلك الحنان البالغ الذى أخصص به العجماوات .
وحكايتى اليوم تجعلنى أميل إلى الرأى الأخير .

المنظر شوارع كولومبو عاصمة سيلان ، وقد ركبت الريكشو وطلبت من صاحبه أن يجرنى إلى سينما فى طرف من المدينة ، وان يسرع فى عدوه حتى لا تفوتنى الحفلة الماتينيه والفيلم هوه دون كيشوت ، يمثله شاليابين ، ووقتى فى كولومبو لا يحتمل إضاعة ليال كثيرة فى السينما . وحفلة السواريه عندى هى والفت وشوربة العدس بالبصل سيان فى أنهما نوع من البنج لا قومة لى منه إلا فى الصباح

ولكن صاحب الريكشو هو فى نفس الوقت حماره وسائقه ، وبصفته الأخيرة تشترك مع الشوفيرات والعربجية فى استكراد الغرباء . فدار بى دورة تنبهت بعدها إلى عبثه فغضبت وصرخت فيه ألا يحيد عن طريق إلى السينما . ويظهر أن خلقة حمارى الآدمى مثلثة ، فهو فوق أنه انسان ودابة عفريت من الجن ، إذ استطاع — ويخيل لى أنه فعل هذا فى لمح البصر — أن ينقلنى إلى أقصى المدينة فى الطرف الآخر منها حيث لا يوجد السينما ، فصرخت أستحثه . ولصوتى أثر عجيب فى نفسى وهو أنه إذا صدر غضبان ضاعف من حنقى فأصرخ من جديد بمقدار غضبى المضاعف . وهكذا حتى تجحظ عيناى ويكاد يقفز قلبى من حلقى لولا اختناق هذا الأخير تحت تأثير الحنق البالغ .. ورأى حمارى الآدمى ذلك فقال فى نفسه « داما بيهزرش » وانطلق يعدو وقد فكر أخيرا أن ينهب الأرض بدل أن ينهب جيبى . ولكنه رجل قارب الكهولة ، وأصحاب الريكشو كهولتهم شيخوخة وشبابهم كهولة . وهو نحيف التكوين ضعيف البنية مصاب بالربو أو ما إليه ، فيا لمصيبتى فيه ! وهنا نسيت الآدمى وذكرت مطلع قصيدتى التى قلتها فى الرفق بالحيوان أثناء التلمذة (وأرجو أن

يطمئن القارىء إلى أن شعرى مستقر فى قرافة المجاورين منذ الحداثة فلا خطر عليه منه !) فنالتنى الشفقة بالمنحوس الذى قضى عليه سوء الطالع أن يجرنى إلى السينما فى ذلك اليوم .

ولما كان من عادتى أن أعبر عن مشاعرى نحو الحيوانات بصوت عال فقد خاطبته قائلا « أيها الحيوان ، ماذا غرر بك لتضيع وقتى هكذا ! » ، ثم أذكر أن حفلة الماتينيه قد بدأت وأنه السبب فى ضياعها على ، وأن أضاعته لها متعمدة . وهنا يعود أمامى إنسانا غشاشا نصابا فأصرخ « أسرع أيها الحمار ، أسرع أيها الكلب الحقير ! » فتقع كلماتى على سمعه كأنها السياط تلهب ظهره فيندفع ساعلا ، ويخيل إلى أنه لابد واقع أعياء بين عريشى فيتونه ، وربما أسلم الروح فى بهرة أضواء باب السينما ، ولن أغفر لنفسى وفاة هذا الأنسان التاعس الذى لا يشارك البهائم فى زرائبها ومأكلها ومشربها فحسب ، بل فى صناعتها ، فأقول « خفف من سرعتك أيها اللص . فوت على ميعاد السينما ، فما فائدة لهثك ؟ » ثم أذكر أننى مصمم على دخول الماتينيه ولو متأخرا ، فخير لى أن أرى بعض الرواية مفتح العينين من أن أراها كاملة وأنا فى غفوة تعد السابعة فى ترتيب النوم ، فأعود إلى الصياح وأضرب أرض الريكشو

بقدمى ، ولا تلبث عيناى أن تشرفا على الخروج من محجريهما وينطلق المسكين لاهثا ساعلا باصقا لاعنا بلغته السنجالية . وقد ذكرنى لغطه بلغته أننى لم أشتمه إلا باللغة الأنجليزية . وإذا كنت قد ألقيت على سمعه أقبح ألفاظها — وهى شتائم تعلمتها من البحارة الأنجليز ولم أجد لها ترجمة محترمة لأثبتها هنا — فقد نسيت أن هناك كنزا من الشتائم فى لغتى لم أنتفع به بعد لذا انطلقت أكيل لهذا السنجالى نقاوة شتائمنا المصرية الأصيلة وقد وصلت إلى حالة ذريعة من الحنق نفخت فى زمارة روحى حتى أشرفت على الانفجار . وما كان أعظم دهشتى إذ كان لألفاظ السباب المصرية فى فمى وقع البلسم على نفسى . وإذا بزمارة روحى وقد سمع لها صوت يقول « فس » وكأن تغجيرى باللغة المصرية وخز إبرة فيها الراحة والبرء .

وضحكت من غضبى الفارغ ، وسخرت من شاليابين ودون كيشوته ، وضاعفت لحيوانى النصاب أجره تاركا إياه فى موضع ما . ونزلت أتريض وأعجب بلازوردية السماء فى سيلان ، حتى انتهى بى المطاف إلى بائع شراب النارجيل ، فجلست أحتسى ذلك الشراب العلوى يقدمه لى الساقى فى نارجيلة طازجة أعمل فيها بسكينه حتى فتح بقشرتها ثقبا

يسيل منه شرابها كأنه لعاب العذارى اليافعات .

وشاهدت الفيلم فى حفلة السواريه . وفى قولى شاهدت كثير من التساهل أغتفره لنفسى إذ لا أجد كلمة تعبر بالضبط عما أريد . فاذا أنا قلت استولى على النعاس أخطأت التعبير لأنى أذكر جيدا أنى كنت قائما فى جلستى مبحلقا فى الستار الفضى ، وأنى رأيت طواحين هواء وعمالقة ، وسانكو بانثا ودولسينيه ديلتوبوزو . إلا أنى لست متأكدا من رؤيتى كل هذا فى السينما أو هى الصور العالقة فى ذاكرتى من كتاب سرفانتيس الخالد قرأته لبضع سنوات خلت . من يدرى ؟ ربما كنت أحلم يقظا فأنا على يقين من أنى لم أر دون كيشوت راكبا فرســـه روسنانت ، وإنما رأيته يركب ريكشو يجرها رجل كهل عجاف يسعل ويبصق ويلهث ويلعن باللغة السنجاليه فيرد عليه فارس دى لامانشا بأنقى وأصفى شتائم الحسينية ودرب عجور .

القردة الخطافة

قال صاحبي الهندي المسيحي وقد ركبنا القطار في «مادورا» بجنوب الهند ، بعد زيارة معبدها الكبير المكرس للآلهة «ميناكشي» ذات عيون السمكة والنهود الثلاثة : «جهزت لك غذاء إسلاميا تتناوله في القطار على الطريقة الهندية ، فقد خشيت أن يدنسك غذاء غير إسلامي في عربات الأكل» .. وشرع قبل قيام القطار في فك بقجة كبيرة احتوت أنواعا من الأرز والكري لا عداد لها ، اختلطت بلحوم لا شكل لها ضمخت بالتوابل ، وقدم لي صحافا من ... أوراق الموز .

أخذت موضعي من العربة وأعملت أصابعي الخمسة في هذه اللبخة الهندية التي هي غذاء إسلامي . ونية صاحبي الهندي المسيحي حسنة ، فالمسلم في الهند لا يقرب أكل الهندوسي ... ولا المسيحي والعكس بالعكس . وكان من الطبيعي أن يأمن جانب اعتراضي الديني حين يقدم لي هذه الأكلة الإسلامية

ولكنه حين علم بأن المسلمين فى غير الهند لا يحيطون أنفسهم بهذه الحرمات التى لا معنى لها ، وأن كل ما يتجنبونه على الأكثر هو لحم الخنزير ، وعدنى بأكلة براهمانية فى محط رحالنا التالى .

وبينما يتأهب القطار للمسير — وإذا تأهب القطار للمسير فى جنوب الهند فمعنى هذا أن هناك عطلا فى الخط ، وأن القطار قد لا يتحرك قبل ساعة أو بعض ساعة — اندفع جمع من القردة نحو النوافذ ويمموا شطر غذائنا الشهى ، وإذا ما لاحظنا الشراهة المشرقة فى عيون هـــذه القردة فاننا نحكم توا بأنها قرود غير هندوسية ، وإلا عافت نفوسها أكلتنا الأسلامية . وقام صاحبى يطاردها وقمت خلفه لأعرف من أين جاءت ، فهى أول قردة أراها فى بلاد القرود . ولما كنا قد اعتدنا أن نرى القرد تابعا لصاحبه ، فقد اشتقت أن أرى القرداتى الغنى الذى يحكم على قطيع من القردة يرسله فى أثر الآكلين بدل أن يعلم أفراده «نوم العجوزة ازاى» أو «بوس إيد سيدك يا ولد» و «فين عروستك يا ميمون»

وما إن اندفعت إلى النافذة فى أثر صاحبى حتى كان أفراد من القطيع قد اندفعوا من نوافذ الناحية الأخرى وانقضوا

على سباطة الموز الذى يمثل فاكهتنا الوحيدة فاختطفوها ، وعدنا نهوش ونلوح بأيدينا ولكن بعد فوات الوقت ، فقد كان أفراد القطيع اقتسموا أصابع الموز ، وذهب كل منهم فى سبيله يحمل أصبعه ليقشره ويتبلغ به على مرأى منا فوق رصيف المحطة .

ولم يكن هناك قرداتى ، وإنما فهمت من صاحبى الهندى أنها منصر من القردة تسطو فى المحطات هذا السطو المنظم ، فيشاغل فريق منها الآكل من ناحية حتى إذا ما قام يطاردها هجم الفريق الآخر من الناحية الأخرى ، وحمل ما تصل اليه أياديه من الموز والجوز . وجعل صاحبى يعتذر لى آسفا على ما حدث . فأجبته ضاحكا بأننا ندفع للقرداتى فى بلادى مقدار ما تساويه سباطة موز فى بلاده مقابل أن يعرض علينا قرده الوحيـــد — يصطحبه جحش ومعزة هما فى الأكثر كومبارس — ألاعيب أقل طرافة مما رأيت ، وبأنى أشكر هذه الفرصة التى أتاحت لى — فى مقابل سباطة موز — أن أشاهد « فصلا » بديعا من هؤلاء القرود يفضل عندى كل شقلبات قرود القاهرة ، وكل تقليد « نوم العجوزة » و « نوم العروسة » فهذه فى مجموعها دروس محفوظة عن ظهر قلب . أما أن يتآمر

قردة محطة مادورا على زائر مصرى يرافقه مضيفه الهندى ويدعوه إلى مأدبة إسـلامية فى صحاف من أوراق الموز، ويصيبوا هذا النجاح الباهر ، فهو آخر ما كنت أنتظره من أصدقائى الحيوانات . ولاشك عندى بأنه لو كان لها فى محافظنا — لا فى موزنا — مآرب ، لاستطاعت أن تشرط جيوبنا كأمهر نشالى العتبة الخضراء بالقاهرة . وإنى بعد اتساءل عما إذا كانت هذه القردة فى دخولها محطة «مادورا» قد قطعت تذاكر مقابلة ، أو أنها حاصلة من ناظر المحطة على ترخيص بائع سريح . بل وأريدك أن تتأكد من أنها غير تابعة لبوفيه المحطة سلطها صاحب امتيازه على الركاب الذين يرفضون التعامل معه ، ويحملون غذاءهم من المدينة أو من منازلهم .

ثم رفعت قبعتى تحية للقردة ، وتمنيت لها أتم النجاح فى مهمة أدخلت على قلبى السرور فى يوم شديد القيظ بجنوب الهند ، وأنستنى كل العناء الذى لاقيته فى ازدراد الأكلة الأسلامية التى قدمها لى مضيفى .

الريس أحمد

لو أن فى وظائف البحرية العسكرية وظيفة فتوة «الدريد نوت» لكان الريس أحمد أول مرشح لها . ولو أنه — لا قدر الله — فقد مركزه فى بحرية الدولة ذات يوم فانى أرشحه لوظيفة عتال فى الجمرك ، او أجلسه على عرش اوليمبى فى بلاد الرباعين ، أو أعرضه فى الموالد لابسا « ريدى » عليه هلال ونجمة ، تحيط به شتى الأثقال إحاطة الهالة بالقمر .

لم يكن يحب الحياة الشاقة الفذة التى نحياها على ظهر السفينة منذ شهور بين السماء والماء — ومن منا أحبها ؟ — ولكنه احتملها كما احتملناها جميعا . أما مانناء بحمله واحتماله فهو الريس عبد الله ، الرجل القصير الذى جمع بين مكر الثعلب وخفة القردة ، والذى كان يكرهه جميع البحارة لا لعلة إلا أنه رئيسهم المباشر . وكره البحارة عاطفة زمنية مكانية ، فهى رهينة بالسفينة وبالسفينة فى عرض البحر . أما إذا رست

هذه وخرج رجالها إلى البر فأن عاطفة الكره تهرب إلى عرض البحر أمام حاجز الأمواج و تترقب خروج السفينة من الميناء لتحط بين رجالها . وهى فى هذا تشبه مجموعة من المشاعر تستولى على راكبى البحار وتختفى عند اقتراب الشاطىء . والبحارة فى هذا يشاركون المساجين والأسرى وكل من تقضى الظروف بأن يحشدوا سويا فى صعيد واحد بعض الزمن .

أصيب الريس أحمد بالملاريا فى عرض البحر ، وكلما ذهبت لأعوده شكا لى الريس عبد الله أكثر مما يشكو الصداع والحرارة والرعدة . ومع أنى لم آخذ شكواه على محمل الجد مرة لكثرة اعتيادى عليها . ولأنى قيدتها على حساب العواطف الزمنية المكانية الخاصة بعرض البحر ، إلا أن إصراره عليها واهتمامه ببثها أكثر من الكلام عن مرضه ، جعلنى أفقد بعض صبرى . ولما كانت أعمالى كثيرة متعددة النواحى على ظهر السفينة ، فقد تركت للريس أحمد كل جرعاته من الكينا عن يوم كامل توقعت فيه عدم إمكانى الذهاب إلى عنبر رؤساء البحرية قبل الهزيع الأول من الليل . وتركته وهو يلحف بالرجاء أن أجد له علاجا يريحه من الريس عبدالله أكثر مما يريحه من الملاريا .

وبعد العشاء ذهبت لأعود مريضى فألفيته فاقد النطق ، ولكنه كان محتفظا بقواه العقلية . . . وربما الجثمانية أيضا ، وإذا كان قد فقد من هذه ما يعادل قوة أربعة رجال فقد بقى له منها ما قد يقل قليلا عن قوة ستة رجال . وأشار إلىّ بما يعنى أن فى رأسه آلافا من الطواحين ، لها دوى وهزيم ، ووش عظيم ، فبادرته بالسؤال عن عدد ما تناول من حبات الكينا فأشار إلى بأنه ابتلعها كلها مرة واحدة . وهنا لم أتمالك من تذكر حكاية الصعيدى الذى قرش شربة الملح الانجليزى أو السلوفات . وإذ كانت حالته غير خطيرة فقد أمكننى أن أصرخ فى أذنه — وقد أصمت سمعه الكينا مؤقتا — أهو ربنا حاير بخك من الريس عبد الله .. ويريحنى منك ياريس أحمد .

عبد الغنى

أغلب بحارة هذه السفينة « أولاد بلد » ولكنهم أحيطوا لسياج العسكرى وألبسوا نظامه ، فاتخذوا طابع الجندية وفقدوا كثيرا من صفات ابن البلد . أما عبد الغنى فهو بحار « ملكى » استخدمته البعثة فى السفينة قبل سفرها . فاذا قسمت ركابها إلى فريق عسكرى خاص بالملاحة والآلات ، وفريق «ملكى» خاص بالكشف العلمى ، فأنت مضطر أن تجعل من عبد الغنى فريقا وحده ، فهو نشاز صارخ على ظهر الباخرة . ومع أننا نلبس جميعا فى عرض البحر أسمالا تسبغ علينا سيماء قطاع الطرق أو قرصان البحار ، إلا أنه يسهل تمييز عبد الغنى من رجال البحرية حتى تحت هذه الأسمال . فمشيته وحركاته ، وطريقة كلامه وتلقيه الأوامر وتنفيذها ، تنم على أننا حيال «صاحب صنعة وابن كيف» . ثم هو لا يكاد يتحرك على ظهر السفينة إلا حاملا منشاره أو قدومه . أما فى « وقت

الراحة ، فان جلسته وطريقة تدخينه تفضحان أمره لكل ذى عينين . فليست هذه جلسة بحار عسكرى أو وقاد فى «الراحة» ، بل هذه ليست جلسة رجل من رجال البحر. وإنما يحول لك عبد الغنى كل شىء حوله إلى قهوة بلدى ، بجلسته وحديثه وإشاراته وطريقة تدخينه .

ومع هذا فقد انتهى عبدالغنى إلى اقتناء بدلة وقميص أفرنجى ليلبسهما بدل « الساكو » والجلابية . ولكنه لسبب لا أفهمه — وهو مصدر عجبى الدائم كلما رأيت حدوثه فى مثل هذه الحالة — أهمل أن يشترى الياقة والبمباغ .

إن أمر إهمال الياقة والبمباغ عند عبد الغنى وأمثاله ، ربما كان قائماً على نفس الأسس البسيكولوجية التى تجعلنا نصر على لبس الطربوش . فهذا عبد الغنى قد اضطر بحكم الوسط الذى أحاط به على ظهر السفينة — وخصوصاً حينما يخرج وإياهم إلى البر فى الموانى ، وهم مضطرون هناك إلى الاحتفاظ بلباسهم العسكرى — إلى لبس الملابس الأفرنجية . ولكن فى نفسه بقية احتجاج على هذا ، وبقية تمسك بعاداته و «قوميته» المحلية . وبمجرد إهماله الياقة والكرافتة تجعل المثلث الظاهر من القميص خارج الصديرى ، وأزراره البادية ، وأكمامه

الخارجة من أكمام الجاكتة لا تضمهما أزرار قميص ، رمزا على « القومية » المحلية ، وعلى أن عبد الغنى — برغم كل شيء — رجل ابن بلد وابن كار وليس « أفندى » .

كذلك نحن والطربوش . . . نلبس الملابس الأوروبية ونحاول أن نرقى إلى مستوى الحياة الأوروبية . ولكننا — لا تنس من فضلك ! — مصريون فوق كل شيء .

كأن القومية رهينة بأصص الزرع المقلوبة فوق الرؤوس .

على حمد

إذا قلبت الأوضاع نتيجة زلزال أدبى يجعل من أعالى هذه البعثة أسافلها ، فان على حمد يصبح رئيسا للبعثة بحكم هذا الانقلاب . ولست أدرك الخدمة العلمية والانسانية التى كانت تؤديها فى هذه الحالة ، ولكنى على يقين من أنها كانت تصبح أكثر جذلا ومرحا . وعلى حمد بوضعه الطبيعى فيها — ولم يكن من بنى أنف ناقتها — كان بؤرة السرور ومدار الضحك فى السفينة . وفى الحق أنه شخصية فذة تعد فى نظرى أقصى ما يطمح إليه فى تمثيله بربرى مصر الوحيد . وعلى حمد فوق هذا سفرجى من الطبقة الأولى ولو أنه مقيد فى الدفاتر على الدرجة الثالثة . وهو الوحيد من أربعين لم أسمعه يبثنى شكوى، مدى التسعة أشهر التى قضيناها فى عرض البحر . ولو أن فى صوته وصوصة الشاكى الدائم، والمحتج على كل شىء.. فاذا ما صرخ فيه الكوماندور ضابط الملاحة ليحضر زجاجة

الـ « gin » والماء المثلج ، سمعناه من «خمارتنا» بأسفل السفينة وهو يصعد سلمها إلى الكويرته محتجا « إيه دى ! كمان الجن فى المركب » ، ولكنه يعود إلينا سريعا يتقدمه صواؤه ولم ينس زجاجة ولا كوبا . وعلى حمد ينطق الجيم فى اسم هذا الشراب بلا تعطيش ، ولعله فى نفسه أقام علاقة بين أثر الشراب علينا وبين «إخواننا اللهم اجعل كلامنا خفيف عليهم».
وقد نناقشه فى سر وصوصته عند ذكر هذا الشراب ، ونحاول أن نقنعه بأن الجن مهما لعب برأس شاربه فهو برد وسلام إذا قيس بالبوظة . وهنا تخرج زرابين على حمد ، وتلعب أطراف شواربه المدلاة على شفتوريه كأنها بقايا مكنسة عتيقة ، ويؤكد لنا فى لغة نصف مفهومة بأنه لو استعاضت السفينة عن الفحم بالبوظة لزادت سرعتها بضع عقد ، ولو جعلنا منها شرابنا كل مساء بدل الجن لأخرجت من أجسامنا كل داء ، وجعلتنا أقوى على تحمل المشاق وأسرع جذبا للشباك وأقدر صيدا . وهنا لا نرى مناصا من سلوك سبيل المسالمة ، فنتفق وإياه على أن جميع المسكرات شراب الجن والأبالسة ، ونؤكد له بأن بعلزبول قد اصطفى البوظة يشرب منها كؤوسا دهاقا . وأنها البوظة وبواخها فى رأسه جعلته

ينتصب قائماً أمام ابن الصلصالة ولسان حاله يقول « شارب البوظة من قرعتها لا يستجد لشارب الماء حتى ولو من سلسبيل » .

وعلى حمد رجل نظام بمعنى الكلمة . فهو لا يهاب على السفينة سوى رجل واحد : القومندان الاسكتلندى . فحينما يبدو لهذا الأخير أثناء تفتيشه الأسبوعى تقصير فى خدمة على حمد ، يصرخ فى وجهه « آلى هاماد ! » ويزغر له بعينيه الرماديتين ، ويرفع سبابته فى اتجاهه . وهنا تتراخى مفاصل على حمد — ولعل تفسير هذا التراخى فى نفسه هو بعد عهده بشرب البوظة — ويتخذ وجهه سيما البلاهة . وإذ يلتقى نظرى بنظر القومندان ، يكتم كل منا ضحكه ، متواعدين أن نضحك فى وقت آخر من هذا الساذج الذى أضفى على السفينـــة المكدودة روح المرح ، والذى أصبح لازما لنا كالشمس والهواء والبحر والخمر .

فاذا ماخلوت بعلى حمد عقب التفتيش ، وكررت له تحذير القومندان وأنا ضاحك ، أجابنى وهو يصوصى كالفأر ، فيطل عليـه الكوماندور ضابط الملاحة من أعلى الممشى ويجأر « شاتب آلى هاماد أو ألقيك فى اليم » فلا يزيده هذا إلا صواء .

كلفنى على حمد بأن أرسل له نقودا من كراتشى إلى قريته

فى فيافى السودان ، وكان من المستحيل عليه وهو لا يتكلم الانجليزية أن يقوم بذلك ، ولم يكن من السهل على — وأنا أتكلم الانجليزية — أن أؤدى له هذه الخدمة بسبب غباء موظف البريد — ويقينا أن نماذج الذكاء الهندى معدومة فى الوظائف الصغيرة ، والفضل فى ذلك للأمة الحاكمة التى لا تقيم وزنا كبيرا لما اصطلحنا عليه فى حوض البحر الأبيض المتوسط بكلمة النباهة — ولأن قرية على حمد لم يرد لها ذكر فى سجلات البريد . وعدت إلى السفينة — أو المركب بضم الميم كما ينطق بها على حمد — أسأل صاحب النقود عن أقرب مركز ، وعن اسم المديرية التى أنجبتـــه . وقد دهش على حمد ألا يعرف الخافقان بخبر قريته العامرة ، وكان يحسب أن مراجع البريد لا تنص على قريته فحسب بل على نخلتيه وبيته الذى أرسل النقود خصيصا لاصلاح سقفه المتداعى وشراء نخلة ثالثة تطل عليه ... أو يطل عليها .

ثم مضت الأيام فالشهور وعلى حمد لا يتلقى خبرا عن وصول نقوده . وأخيرا وصل مع بريد السفينة فى إحدى لموانى خطاب عنوانه :

« يوصل ويســـلم ليد ابن عمنا المعزوز على حمد الهمام

بالمركب . . . بالمحيط الهندى فى خير وسلام »

وكان وصول هذا الخطاب إلى سفينتنا أعجوبة الأعاجيب ، وشهادة للبريد الهندى بالدقة ، ولبريطانيا بصدق حكمها إذ لا تعتبر النباهة شرطا من شروط الكفاية فى تأدية الأعمال العامة .

واطمأن على حمد إلى وصول نقوده واعتزام أهله شراء النخلة وإصلاح سقف المنزل العامر . ولكن البحارة أولاد عفاريت ، وعلى حمد لا يعرف القراءة ، وقد أفهموه وأشاعوا فيما بينهم — حتى لقد بلغتنا الاشاعة نحن الذين نسكن خلف الصارى الكبير — بأن الخطاب كان معنونا هكذا :

« يسلم ليد على حمد بالمحيط الهندى »

وهذا آخر ما كان سفرجينا الطروب ينتظره . فقد كان يرى من الطبيعى أن تتحلى دلائل البريد باسم قريته وكوخه ونخلتيه . أما أن يكتب له ابن عمه بعنوان « على حمد بالمحيط الهندى » ويصله الخطاب ، فهذا أقوى مما يحتمله تفكيره . ومهما كان جهل على حمد بالجغرافيا ، فقد شهد بعينيه ترامى أطراف ذلك المحيط ، ونزل بالبلدان القائمة على شواطئه ، وسمع فيها اللغات الغريبة ، وعرف بأمر الأديان المتعددة ،

فكيف يمكن للبريد أن يستدل عليه هو « على حمد » وسط ذلك المحيط ، وللخطاب أن يتعقبه من ميناء إلى ميناء حتى يدركه . وقد جاءنى يستفسرنى جلية الخبر فقلت له :

— شوف ياعلى حمد ، أنت دلوقت راجل مشهور وكل الناس فى البوسته تعرف أن فيه مركب اسمه . . . بيشتغل فى المحيط الهندى ، وأن عليه سفرجى اسمه على حمد . وأدينى أهوه إن ماكانش الناس ياخدوك بمثل فى السينما بعد ماترجع مصر بس لازم يقصقصوا شنبك شويه علشان تبقى عليك القيمة .

فأجابنى :

— ياسلام يافندم ! ليه ياهدونى فى السينما ويقصوا شنبى كمان ، هو أنا مسهره ؟

وقد أدرك على حمد أنى أداعبه ، ولكنه لم يفهم بعد كيف وصله الخطاب بعنوان المحيط الهندى ، ومن يدرى كيف يقص على مواطنيه فى الاسكندرية قصة وصول الكتاب اليه . فربما لعبت البوظة برأسه فقال مفاخرا :

— دا الجواب جامن السودان مكتوب أليه بس « ألى همد » ما فيش كلام . أما أجايب والله ياناس !

مشمشة

كلما ابتنى الانسان لنفسه سفينة أقيانوسية كبرى دارت بخلدى مقارنة عقيمة بين سفينة نوح وبينها . عقيمة لأن كل مانعرفه عن سفينة نوح أنها صنعت من خشب ، بينما نعرف عن جبابرة البحار فى عصرنا كل شىء . فمعرفتنا بسفينة نوح أقل قليلا من معرفة آبائنا وأجدادنا بزوجاتهم قبل العرس . فقد كانوا — إلى أنهن من لحم ودم — يسمعون مثلا بأن وجوههن كالقمر ولونهن شىء بين لون القمح والقشدة . ومعرفتنا بالسفائن الأقيانوسية اليوم أكثر قليلا من معرفتنا بعرائس هوليوود طولا وعرضا ووزنا وحركة وسرعة . ولولا أن شركات الملاحة تطلعنا على الدقائق المستترة لعمالقة البحار لتساوى علمنا بنجوم لوس انجيليس والبواخر الكبرى .

ولم أصل فى مقارنتى إلى نتيجة حتى الآن . فانى بين أن أجعل من سفينة نوح مركبا فى حجم المراكب التى تنقل

البطيخ بين البرلس والأسكندرية ، أو فى حجم السكونيات التى تحمل تجارة بسيطة بين بر الشام ومصر ، وبين أن أتخيل « النورماندى » و « الكوين مارى » إلى جانبها فلايك نجاة ليس غير . فاذا أدت معارفى الأيجابية إلى استحالة تصور سفينة نوح بهذه الضخامة — إذ أن صناعة السفن فى عهد أبى يافث كانت ولا شك فى مهدها — فان عقائدى الراسخة ، وإيمانى الذى لا ريبة فيه ، تقض مضجعى حين تصورنى واقفا بأسكلة قوم نوح أتناول جوازات سفر المؤمنين والمؤمنات ، وأتسلم شهادات النولون عن كل زوج من دواب الأرض وهوامها ، وطيور السماء ، ووحوش البرية . ويتواضع خيالى فأتصورها مائة ضعف ما يملأ حديقة الحيوانات بالجيزة فأقع فى مأزق لا مخرج منه إلا أن تكون سفينة نوح أكبر من كل ما أنشأته وتنشئه يد الأنسان الذى نعرفه اليوم قصير العمر والهامة ، إلى جانب أقوام كانت تذرع قاماتهم بالمائة والألف ، وتبكى النادبات شبابهم المقصوف حين تقبض أرواحهم فى سن العشرين بعد الثلثمائة .

وقد لازمتنى هذه المقارنة الجوفاء ملازمة سمجة حتى ركبت الباخرة العلمية الصغيرة التى انطلقت بى فى غير وعى

شطر المحيط الهندى ، تحمل جماعة مختلطة من عشيرة بريطانوس وأفخاذ مصرايم اعتزموا أن يركبوا الطوفان قبل أن يركبهم.

وإذ احتوت السفينة أربعين منا ، مع أن طولها لا يتعدى الأربعين مترا ، وتكدس على سطحها وفى بطونها زادنا وزوادنا ، والفحم والماء والزيت والشحم والثلج والشباك وآلات رصد البر والبحر والجو ، وزجاجات الخمر وصناديق الدخان وعلب السجائر والكتب والأوراق والأسلحة وأدوات الزينة والنظافة ، وملابس التشريفة وأسمال العمل وسترات المدينة ، ومئات البرطمانات والصناديق والأحواض والأجزاخانة وأدوات الجراحة ودمجانات الكحول والفورمالين ، أقول حينما احتوت سفينتنا كل هؤلاء وكل هذا آمنت بأن سفينة نوح لم تكن أكبر منها بكثير ، وأن السر فى صناعة الصانع وتدبير المدبر . فهؤلاء مهرة الخطاطين يعرضون لعيوننا المشدوهة حبة من الأرز كتبوا عليها ألفية من الألفيات أو سيرة من السير .

كانت باخرتنا العلمية نوعا من سفينة نوح . غير أنها لم تحتو من الانسان غير الذكور . أما من الصراصير والفيران والهوام فقد يكفى أن ترى تزايد عددها يوما عن يوم لتعلم

أنها لم تجىء إلى مركبنا خالصة لوجه الكشف العلمى مثلنا ، متجردة متبتلة ولو إلى حين . ولقد شاركتنا مأكلنا ومشربنا وفراشنا . فلم أر أصفق وجها من فيران هذه السفينة ، تجيئك ليلا لتعبر جسدك النائم عند الموضع الذى يروق لها ، مع تفضيل خاص لجبينك الوضاح ، وكأنها تحميك من شر النفاثات فى العقد ، وترقيك من حاسد إذا حسد .

أما صراصير هذه المركب فكانت سكيرة عربيدة ، أدمنت على شرب الفيرموت الايطالى إلى درجة أوردتها موردالردى حين وجدنا فى هذا الشراب خير مصيدة لها .

فاذا استثنينا الفيران والهوام والصراصير فى المركب باعتبار أنها كدود المشمنه فيه ، واستثنينا رحلة من الرحلات اضطررنا فيها إلى حمل عشرين رأسا حيا من غنم بربر ، وبضعة أزواج من الدجاج اليمنى ، نجد أن ركاب سفينتنا الأربعين كانو كلهم ذكورا إلا « مشمشة » .

ومع أن مشمشة لم تكن إلا قطة يمكن أن تضاف إلى حساب الحيوانات السالفة الذكر ، إلا أن شخصيتها الفذة ، وخلقها السىء القلب ، وحبنا جميعا لها ، واشتراكها فى نشاطنا العلمى ، ومشاطرتها لنا أفراحنا وأتراحنا وأمراضنا ، وحصولها

على أكلها لا غدرا ولا قسرا ، بل اقتدارا وحقا من حقوقها تعدنا مضطرين إلى أدائه ، وأخيرا قلة حيلتها فى صيد الفيران ، جعلت مشمشة واحدة منا .

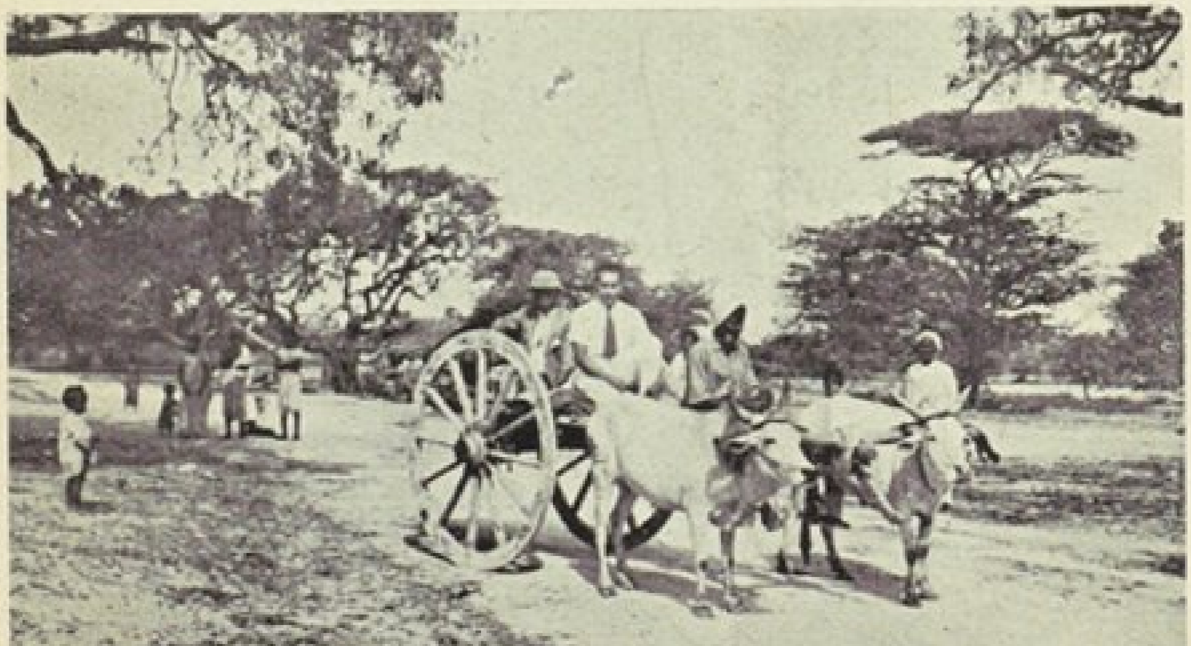
ولم نختلف فى شأنها إلا على أمر واحد ، هو اشتراكها فى نشاطنا العلمى . فقد لاحظنا أن مشمشة لا تقرب الأسماك التى تصيدها شباكنا . وقال العلماء منا : إنها تحترم بحوثنا ، وتعرف ما لهذه الأنواع الغريبة من قيمة علمية فلا تقربها . وقال الهازئون بعلمنا : بل هى تعاف نماذجكم العلمية . إذ تعرف بسليقتها أنها لا تسمن ولا تغنى من جوع . فهى أسماك عجاف تعيش فى أعماق البحر السحيقة . ولو لم نتلمسها بأيدينا لحسبناها أرواح أسماك تهيم فى هيولى خيالكم .

ولعل الحق فى جانب الساخرة . فقد رأى الجميع مشمشة تتخلى عن وقارها العلمى فتموء وتموء ، وتدور حول الشباك لتسطو على ما بها ، وهذا فى كل مرة ألقينا الشباك فى الأعماق القريبة ، وحصلنا على مثل الأسماك التى تتغذى بها .

واتخذت مشمشة محلا مختـــارا فى الليل أو فى القيلولة برطوز البحرية . وهى فيه واضحة الميل نحو فراش واحد أو اثنين من البحارة عنيا بها عناية خاصة . ومشمشة مخلوقة



الريكشو ـــ سيلان (أنظر صفحة ٧)



حجاج « راميشفارام » ـــ جنوب الهند (أنظر صفحة ١١٧)

تعرف قدر نفسها . فليست من ذوى النفخة الكدابة ، ولا هى من أهل التواضع إلى حد الذلة . فهى تتجسطن فى برطوز البحرية بنفس الكبرياء الذى يحول بينها وبين أن تزج بنفسها فى قمراتنا خلف الصارى الكبير ، مع ما نظهره لها من حب وما نمحضها من عطف . ولا أذكر أنها جاءت ناحيتنا راضية إلا فى فرصتين : الأولى حين ألم بها مرض فحملها الضابط الأول إلىَّ لتعالج . وقد جاءنى مكفهر الوجه يقول « القطة عيانه يا فندم » . وحينما لحظ أنى احتسبت فى فحصها — ولا عهد لى بعلاج الهررة — أضاف مشجعا « موت قطة المركب فال وحش يادكتور » . وكانت مشمشة مسجاة على مكتبى ترتجف بين الآونة والأخرى وقد سخنت أرنبة أنفها وجفت . ومرت بذهنى سراعا ذكريات عهدنا الأول بهذه القطة : ولادتها على طوافة راسية عند السويس ، من أم عجم البحر عودها إذ تربت وسط ضباط بحريين كانوا يلقون بها يوميا فى اليم لتعود سابحة إلى السفينة . ومرورنا بالسويس متجهين إلى البحر الأحمر فالمحيط الهندى ، وإهداء الضباط رفقاءهم هذه الهريرة وكانت فى لون الحناء خططت بالبياض .

أما الفرصة الثانية التى جاءت فيها مشمشة تجوس خلال

قمراتنا فكانت عندما أوفت على البلوغ ، ودارت تملأ أرجاء السفينة مواء وهى مدفوعة بغريزة تتنبه فيها لأول مرة . وقد وجدت فى سلوكها هذا موضوعا لحديث على المائدة من تلك الأحاديث التى يتبرم بها إخواننا الانجليز :

— هذه الهرة أيها السادة تفضل عندى بنى الإنسان ، وهى تذكرنى بأوضاعنا الاجتماعية التى تضطرنا إلى كبت واحدة من أهم غرائزنا ، وأسوأ من كبتها الإمعان فى تحقير مظاهرها حتى لننظر إلى المرأة التى تعمل لها مخلصة نظرتنا إلى المجرمين . هذه القطة التى تتأففون من موائها ليل نهار أشجع من ابن آدم . فهى حينما طلبت الأليف أعلنت ذلك على رؤوس الأشهاد بلا هوادة وفى غير خجل ولا وجل .

ويفتح حديثى هذا مجال معركة حامية تسدد إلىَّ فيها سهام الوقار البريطانى ، وأعامل كضحية من ضحايا « إباحية القارة » . فأمعن أنا فى استحقاق لقب الإباحى . فاذا جمعتنا المائدة يوم خروجنا إلى البحر بعد أيام قضيناها فى البر ، وجعل كل منهم يتكلم عن الكلوب الذى احتواه أثناءها ، وعن ماتش الكريكيت الذى شاهده ، أو لعبة التنس التى اشترك فيها ، انتظرت حتى أسأل : وأنت أين اختفيت ؟

فأجيب : « كنت أتابع لعبتى المحبوبة : مطاردة الغوانى ، حتى ولو كنت فى زيارة معبد « إليفانتا » أو « بركة » التماسيح إلى جانب ولى الله « مانجوپير » .

ومقام مشمشة معروف خارج برطوز البحارة . فهى بباب وجاقهم (مطبخهم) ساعة تسلم الطباخ اللحم من رئيس السفرجيـة ، أو ساعة تسلم كل منهم غذاءه . وهى مقتبرة فى أحضان «العم» على رأس «الكبانة» منامة هذا الوقاد الفيلسوف فى حصة العصر . فإذا لم تجدها هنا أو هناك فتأمل على ظهر السفينة مواضع الخطر ، لترى مشمشة تحت شبكة معلقة تزن نيفا وخمسمائة أقة . أو إلى جانب سلك الآلات تسحبها السفينة على قاع البحر ، وإنه لقادر إذا انقطع لجأة أن يقضم الرجل قضما . أو تحت ميزان الضغط الذى ينذر بخطر اشتباك الآلات بالقاع الصخرى . أو تحت «الكباش» الكبير يزن ألف كيلوجرام وترفعه الونشات لتعود به آمنا إلى ظهر السفينة ، وهو محمل بخيرات قاع البحر من كل هردومة صخر زوجان . أو بين أرجل البحارة الأشداء يشتركون فى رفع الشباك من الماء فى اللحظة الأخيرة .

أى أن مشمشة مثل حى لمفاخر شعراء العرب الذين

يدعون بأنك لا تلقاهم إلا حيث يشتد الكر والطعان (كذا) وحيث ترخص النفس فى سوق المنايا (كذا). وإذا لم يقم لدينا دليل على صدق هذا الادعاء أكثر من أشعار فاقت حد الروعة فى البلاغة، فانى قد رأيت بعينى رأسى مشمشة تخوض وادى الردى بقلب ثابت، وجنان غير واجف. وتنظف شواربها بلا اكتراث وسط حلقات شبكة على وشك أن ترسل إلى عمق أربعة آلاف متر فى المحيط، أو تغفو قاعدة القرفصاء على شفا سفينة يلعب بها العباب لعبا.

وعادت مشمشة إلى مصر ضمن من عادوا إليها بعد أن طوفت معهم تسعة أشهر فى طول المحيط الهندى وعرضه، ونشرت صورتها على صفحات الجرائد فلم تزدها الشهرة خيلاء على خيلاء. ولم تزدها رؤية الأمصار ثروة أو خبرة. بل ولم تمكنها هذه الحياة الرحّل من انتقاء عريس صالح بين هررة سيلان أو قطط زنجبار أو سنانير الهند. عادت إلى مسقط رأسها فى السويس عذراء ذهبية الشعر أوفت على سن الزواج، وقد غادرتها طفلة فى لون الحناء.

الهر المتقشف

اسمه «داديكارنا» عاشت الاسامى . قدم إلى من أعلى صخرة « ماها بالى پورام » التى نقش عليها الفنانون « كفارة أرجونا » وقيل بل مثلوا على سطحها الفليدسپاتى قصة نهر الكنج ينبع من السماء فى صورة الحيات « ناجا » . سأعود إليها فى وقت آخر . إنما أنا الآن بصدد السيد السند «داديكارنا» . وهو سنور قيل عنه فى ملحمة «المهابهاراتا» إنه من «عباد شيڤا» الصالحين وقد رأيت صورته البارزة على صخرة «ماهابالى پورام» فى حركة نساك الهند كأشد ما يكون عليه القط الورع . فهو واقف على طرف واحد من طرفيه الخلفيتين فى حركة الفقير الهندى يعذب جسمه الزائل بوقوفه على رجل واحدة ، كما تفعل الصبية فى لعبة الحجلة . والتقشف الهندوسى يصطحبه تعذيب الجسد إما بالنوم على صفوف من أسنة مسامير قائمة ، أو على مصنع زجاج محطم ، أو بالجوع أشهرا ، أو أن يدفن الناسك

نفسه تحت الثرى يتنفس من أنبوبة بيريسكوبيه (بيريبنوماتيكية) أو لا يتنفس — هو وشأنه — أو أن يقف خاشعا على أم رأسه زرع بصل ، ضارعا إلى الآلهة برجليه ممتدة الى أعلى .

وقد تخير صاحبي « داديكارنا » وقفة لاشك بأنها أكثر مما يطلب من هر أن يؤديه فى ناحية تعذيب الجسد . فلعبة الحجلة هى آخر ما يفكر به أمهر السنانير البهلوانية . كما أنه انتقى من الأغذية أقلها صلاحية لخؤولته وأسباطه : حبة واحدة من الأرز كانت وجبته اليومية الوحيدة . فلا عجب أن يصوره الحفار على صخرة « ماهابالى پورام » بادى الأضلاع ضامر البطن . حتى ليخيل لى أنه قد يمر من خرم إبرة . أما عن سبب هذا العناء فى المأكل والمقام ، فهو سر القداسة المودعة فى نفس هذا السنور التقى من بين الأتقياء كتبت لهم النيرفانا وقد وصلوا فى التناسخ إلى أرقى الدرجات البرهمانية .

ذاع صيت القط « داديكارنا » وملأ الأسماع . فكان حديث الجرذان فى كل صوب وحدب . وقد رأى شيوخ الجرذان فى هذا القط علامة من علامات اقتراب الساعة . أما شبابهم فكانوا أقل تفكيرا بالآخرة حين نزعوا عن قلوبهم الخوف من الهررة . وقد بلغ الأمر بالفأر منهم أن تلعب الخمر برأسه

فيخرج من جحره ويعترض الطريق العام صائحاً يلعن . . . أحسن قط فى الحته ! »

وتبلغ مسامع السيد «داديكارنا» أمثال هذه الاستفزازات فلا ينصرف آناء الليـل وأطراف النهار عن عبادته ووقفته البهلوانية الشاقة . ولا يتبلغ فى يومه بغير حبة أرز واحدة .

وأنست الجرذان بالشيخ الورع، فكانت تقترب منه وئيدا يصدها الرعب التقليدى ويدفعها الفضول لتأمل هذا العابد الصوام . فاذا النورانية تضفى على وجهه الجليل ، وتشع من شواربه البيضاء المهيبة .

والفيران — كأبناء آدم — تخضع للعادة . وقد اعتادت أن تأنس إلى القط «داديكارنا» فجعلت تقترب منه وتخاطبه فلا تسمع إلا مواءً رقيقا ينطق بالحكم البالغات ويفيض بالرأفة واكتسب «داديكارنا» إعجاب إناث الفيران بنوع خاص، فكن يفدن عليه جماعات محشودة ، يبثثن إليه شكواهن من ارتفاع أسعار الجبن إلى ندرة الخبز المقدد ، ومن قلة نسلهن (كذا) إلى بصبصة أزواجهن لفارات القرية المجاورة . ولا ينسين ثلب اعراض الجميلات منهن بالباطل والحق سويا . فكان مجلس القط صواءً وعويلا وضحكا وزقزقة وشقشقة ، فى غنج وأناقة

ودلال ورشاقة كأحسن مايكون عليه صالون مدام لامار كيز حين يتوسطه المونسنيور رئيس الأساقفة .

وهرنا «داديكارنا» يرفع مخلبيه محتجا أو متعجبا أو ضارعا أو مباركا . فاذا ماء فانما يموء بالوعظ والارشاد ، وإذا سكت مواؤه عاد إلى تلاوته التى لا يغفل عنها «پر . . . ر . . . پر . . . ر . . . ر . . . » فتتبادل إناث الجرذان نظرات الاعجاب وترهف آذانها لهذا الترتيل بلغة مجهولة ، ينزل على قلوبهن بردا وسلاما ، حتى ليأخذهن الاعجاب فى آخر كل مقطع «پر . . . ر . . . پر . . . ر . . . » فيرددن بصوت واحد «ياسلام ياسى الشيخ !»

وبلغ من دخول الجرذان على «داديكارنا» وألفتهن له واعتيادهن عليه أن شكون إليه بنى جنسه من الهررة الطالحة ، وكيف تسطو على صغارهن فلا تبق ولا تذر ، وذلك حينما يسعين فى طلب الرزق فتخرج الصغار من الأجحار رغم تحذيرهن لهامن السنور وفتكه . فيرفع «داديكارنا» مخلبيه طالباً الرحمة لبنى جنسه ثم يقول :

— ولكنى كفيل أيتها المسكينات بأن أقوم على حراسة صغاركن .

وهنا يتطاير الخبر إلى جميع القرى والدساكر بأن مولانا السنور الصالح قوام على صغار الفيران . فتؤمه الأمهات من كل صوب تسوق قطعاناً من السيسيات تعهد إليه بحراستها ريثما يعدن من ارتياد كرارات المنازل المجاورة ، يحملن منها البندق واللوز وأقراص الجبن وكسرات الخبز . ومرت الأيام والشيخ «داديكارنا» محاط بالآلاف المؤلفة من صغار الجرذان .

إلا أنه مما يؤسف له أشد الأسف أن تبتلى كل المجتمعات بأناس لا يؤمنون بفضيلة ، ويتشككون فى براءة الغرض المقصود بصالح الأعمال . وهم شديدو الريبة بالذات ممن يتغالى فى الورع ويمعن فى التقوى . وقد قال قائل من هذه الفئة الكريهة :

— لو أننى صدقت كل مفضال ورع فإنه لاسبيل إلى الثقة بهذا السنور . من لى بتصديق هذه الأنياب تلمع كالأسنة ؟ وهذه الشوارب ترقص شرها ، والعيون تبرق شرا مستطيرا ؟

وعبثا أجابته الإناث على هذا :

— أنظر اليه بادى الترائب والأضلاع ، واقفا على مخلب واحد من مخالبه الخلفية . . .

— آه من مخالبه هذه !

— أما ترى كيف بطنها بوسائد الحرير والزغب ؟

— بلى ، وأعرفها مخبأ لأظافل كأنها كلابات الزبانية !

— أما بلغك أمره وهو يتغذى بحبة واحدة من الأرز بين نهاره وليله ؟

— لألغين عقلى قبل أن أصدق بأن قطا تبلغ به القناعة هذا المبلغ !

— ألم تسمعه وهو يموء مرددا « القناعة كنز لايفنى » !

— سمعته ، وكأنى بصغاركن هى التى أصبحت لديه كنزا لايفنى !

قتل الفأر ما أكفره ! وهكذا ابتلى المجتمع بكل متحذلق متشكك لايؤمن بفضيلة ولا يقيم وزنا للتقى . ومن عجيب أمرهؤلاء أنهم لايستنيمون للأفكار الموضوعة ولا يتقبلون الحكم المألوفة . فهم لغير أفهامهم لا ينصتون وبغير تحقيقاتهم الشخصية لا يؤمنون . مخالفو إجماع الأكثرية وخميرة عكننة الرأى العام .

ذهب الفأر المتشكك يتلمس الحجة التى تثبت له حقيقة الهر « داديكارنا » . فاختبأ ذات يوم يراقبه وهو مقيم على حراسة الآلاف المؤلفة من صغار الجرذان . . . ويالهول مارأى !

شهد بعيني رأسه القط الورع يتبلغ بجرذ واحدلا أكثر فالخير كثير والحمد لله . والعقل الرجيح قد دله على أن جرذا واحدا ينقص من فيران فى عدد الرمل والحصى لا يوقظ الشبهات . فمن لى بهذه الفأرة التى تلاحظ نقصا فى عدد صغارها (« والعد فى الليمون » واحد من التعويذات الهامة التى يستعملها شعب الفيران لاتقاء شر العين !) ومن لى وسط آلاف الأمهات بمن يمكن أن تسأل عن صحة سلامتها إذا ماحدثتهن بنقص سيسى من فلذات كبدها .

وهكذا استعاض القط «داديكارنا» عن حبة الأرز فأراً طرياً رطب العود . . . والعظام ، يكسر به صيامه اليومى من غير أن يكون مثاراً للشبهات ، ودون أن يضطر إلى السعى الشاق وراء الرزق متصيداً ، وقد رأى فى التقوى والورع ما يبلغه قوت يومه هادئاً وادعاً مشيعاً بمديح جمهرة الفأرات المهذبات .

ومنذ قدم إلى الهر «داديكارنا» من أعلى صخرة « ماهابالى بورام» وأنا أعد « الشيخ متلوف» جلفاً سوقياً إلى جانب هذا السنور الظريف .

ملك الزمان

سمعت عن أحد قضاتنا الظرفاء أنه تزحلق وهو يتقهقر منسحباً من حضرة ملكية . وحين سأله أصحابه عن النطق السامى الذى صدر عقب الحدر أجاب «قال يا سياف خد راسه» .

وهذه النكتة فى رأيى من أرفع النكات ، لأنها من النوع الذى توحى به قوة التصور لا القدرة على التلاعب بالألفاظ . فهذا القاضى يعلم تمام العلم ما هى الشخصية الملكية فى العصور الحديثة وفى البلاد المتحضرة . ولكن علمه لايجديه شيئاً أمام صور الطفولة التى طبعتها جدته فى خياله عن الملك والمملكة ووزير الميمنة ووزير الميسرة والسياف والنديم . وهو رجل نكتة بارعة يأبى أن يجيب أصحابه إلا بما يوحى إليه خياله الخصب . لذا حول موقف الملك الدستورى العصرى يسرع إلى قاضيه فيأخذ يده وينادى على الطبيب أو الأجزاجى

النوبتجى ليغنى برضوضه ، إلى موقف ملك الحدوته « بالزيت ملتوته » يغضب بسبب ولغير سبب . لا يعجبه قوام القاضى ولا لحته . فاذا تعثر فى فرجياته وانقفأ يفترش أرض الأيوان وهو منصرف من حضرة الملك ، نادى هذا على سيافه قائلا بكل بساطة « يا سياف خد راسه » .

ولقد حادثت ملوكاعصريين وتناولت الطعام على مائدتهم . ولكن ذلك لم يمح من خيالى صورة « ملك الزمان » صاحب العرش والأيوان ، والحشم والأعوان ، وجزائر الخالدان . كما أن رغبتى فى رؤية الملوك والسلاطين لم تهدأ إلا حين استقبلنا حضرة صاحب السمو السلطان . . . ملك البر والبحر. صاحب الأمر والنهى فى آلاف من الجزر المسكونة وغير المسكونة . فقد عشت فى تلك اللحظة كل طفولتى وخيالها الواسع تتعهده جدتى . وعادت إلى ذهنى صورة ملك الأفراح أو « ملك السعادة » كما كنا ندعوه ، يركب جواده المزركش المبرقش ، ويلبس قاووق مماليك بحرية أو برية ، يحيط به غلمان اتشحوا بأردية بدوية ، واعتقلوا بجدائل القصب ، وامتشقوا سيوفاً راحوا يضربون بها تروساً عمولة السمكرى أو الحداد .

كنا نحب هذا الملك الذى ينزل إلينا من علياء سنيه الخمسين، ولحيته الكثة اختلط ملحها بفلفلها، فيحيينا بالابتسام وترقيص حواجبه الكثيفة، ثم هو يخرج من جعبته مسمارين كبيرين فيغيبهما فى أنفه حتى تغطى رأساهما طاقتى عرنينه الضخم. ويخرجهما لينحنى يمنة ويسرة لتصفيقنا وتهليلنا الذى يكاد يغطى على موسيقى حسب الله، لولا صوت البوق الكبير يسطع فى شمس الصيف كأنه أشعتها النحاسية انعقدت لزفير موسيقار عتل عملاق، مكتنز مكترش، ضاق بحجم البوق ذرعا فتمنطق به والتحف وتجلبب. ولولا هزيم الطبل البلدى فوق الجمال وقد تمكن من القضاء على كل الأصوات ما عدا صوت البوق الكبير.

وتوالت أمامى صور مراهقتى وأنا أشاهد أشكالا وألوانا من ملوك بيت التمثيل تنشد:

« إن لم أصن بمهندى ويمينى
ملكى فلست إذن صلاح الدين »

قيل « الخير على قدوم الواردين ». وقد تحقق هذا القول المأثور بعد أن استقبل صاحب السمو جماعتنا. فلم يمض على مغادرتنا جزيرته الكبرى عام أو بعض عام حتى

كانت سفينة شراعية تحمله إلى المنفى وقد تنازل عن سلطنته مكرها . ولو كانت الآلهة القديمة اختارتنى بوقا لنبوءتها لرأيت فى اهتزاز عمامة سموه يوم استقبالنا ، وحرصه على توطيد دعائمها بيديه ، نذيراً بطيرانها يوما عن رأسه . ولكنى اتفقت مع قومندانا الاسكتلندى على أن قلق السلطان على عمامته كان بسبب ضيق مقاسها وأنه كان أولى بنمرة أعلى .

لا شك أنى أستبق الحوادث حين أتكلم عن عمامة هذا السلطان المسكين ، كما أستبق الحوادث إذا قلت بأنى مساء يوم الاستقبال تبعنى فى معابر الجزيرة رجل حافى القدمين نصف عار وقال لى بلغة إنجليزية عسيرة « رأيتكم اليوم وأنتم صاعدون لمقابلة سمو السلطان » وحين سألته عن نفسه أجابنى بما استطعت أن أفهم منه أنه سكرتير عام الحكومة . فانتهزتها فرصة أستطلع أخبار هذه الدولة الليليبوتية بعد أن تشرفت بمقابلة سلطانها فى ذلك الصباح ، وتعرفت إلى وزرائها فى اليوم السابق . وسألته عن عدد موظفى رئاسة الوزراء والوزارات الأخرى فكانت إجابته غير المنتظرة « إيت » . فسألته دهشاً « ثمانية أم ثمانون ؟ » وأصر على قوله « إيت سير » .

ولكنى أتبع سياق الحوادث إذا ذكرت مقابلتى فى شارع

العاصمة الوحيد لرئيس الحكومة ووزير الحربية يترجل عن دراجته فيطير شبشبه وهو يسعى إلى مسلماً . يأتزر ببشكير على غرار بياع العرقسوس والحمامى عندنا ، وتغطى نصفه الأعلى جاكتة عسكرية ، وعلى رأسه «قلبق» رمادى أماله على وجهه الأسمر الوسيم ، ويخاطبنى بلغة إنجليزية سليمة تقرب هى وصغر سنه الشبه بينه وبين طالب نجيب حصل حديثاً على بكالوريوس فى آداب اللغة الانجليزية ، ثم يقدمنى إلى أخيه وزير الخارجية والتجارة فيحدثنى بلغة فرنسية رائقة عن مدرسة العلوم السياسية بباريس ومدرسة الاقتصاديات بلوندرة ، وأوبرا «كرول» ببرلين وصالة «پليل» بباريس .

عجب عجاب منظر هذه الوزارة الشابه تسعى فى شارع العاصمة الوحيد بمآزرها وشباشبها ودراجاتها . وأعجب منه حين يطلعونك على معرفتهم بالعواصم الكبرى وما بها من موسيقات سمفونية ومتاحف . وعلى ما قاموا به من إصلاحات فى جزرهم ، ينشئون فيها الكتاتيب بإشراف بعض الأهلين ممن تلقوا علومهم بالأزهر . ويشقون الطرقات الواسعة المظللة . ويغيرون سقوف المنازل من قش النارجيل إلى الصاج المقوس ، مضحين بمظهر الجمال الريفى الأصيل فى

سبيل النظافة العامة والطمأنينة من الحريق. ويترجمون كتب الملاحة البريطانية إلى لغتهم ليواصلوا تخريج مهرة الملاحين على أحدث قواعد الفن مما يساعدهم على الاحتفاظ بتقاليدهم البحرية القديمة التي جعلتهم فى طليعة رواد البحار.

أما السلطان فقد بقى تحفة قديمة يعيش على هامش هذا الاجتهاد العصرى. دخلنا قصره عابرين ممرات وغرفا ودهاليز كل زينتها الترس واليطجان وبعض الطنافس الفارسية إلى جانب حصير من ليف النارجيل المجدول، حتى بلغنا قاعة الاستقبال الكبرى، فاذا بنا فى شبه «أودة المسافرين» لموظف من صغار الموظفين. فى ركن منها بيانو (كذا) وفونوغراف (كذا) من ذوات البوق.

وجلست جماعتنا وكلهم — ماعداى — مختال ببزة عسكرية بحرية بيضاء مشغولة بشرائط القصب ومشرقة بالأزرار البراقة والنجوم والتيجان الذهبية، يسحبون سيوفا تلمع كبارق ثغر عبلة المتبسم. أما رئيسنا فقد وضع فوق رأسه قبعة بيضاء عريضة الأطراف، تعلوها قطعة معدنية مدببة الطرف كالسهم، اتفقنا جميعا — ووافقنا صاحبها — على أنها تؤدى فى جسده عمل مانعة الصواعق فى رأس أبراج

الكنائس . أما أنا فكنت بينهم فى سترتى البنية لوحتها الشمس ، والطربوش الذى استعرته من السفرجى على حمد ، كفأر الميضة تاه فى مصنع كسب وخرج منه فى لون العسل والطحينة .

جلسنا فى قاعة العرش أو أودة المسافرين حول كرسى يمتاز عن كراسينا بكثرة التذهيب وبمنصة ارتفع بها عن دنيانا الوضيعة . وكانت أنظارنا متجهة إلى باب غير الباب الذى دخلنا منه ، أسدلت عليه ستارة حمراء من الباتستا ، كثر خلفها الهمس واللمس ، والغمز واللمز ، ذكرتنى بالستارة التى تسدل على باب تياترو الأراجوز أو ما إليه ، قبل مايلعب » .

ثم رفع الستار ودخل رئيس التشريفات معلنا : سمو السلطان ! .

ودخل علينا رجل أسمر زائغ العينين يتعثر فى فرجية موشاة ذات أهداب وأذيال طويلة يحملها خلفه واحد من الحشم .

وما إن حيانا السلطان وارتقى فوق منصته ، وبينما نحن فى انتظار إشارته إلينا بالجلوس ، حتى رأيناه يرفع يديه إلى عمامة هائلة رجراجة كأنها فوق بحر لجى ، تعلوها مأذنة ذهبية

تنتهى بما يشـــبه جذع شجرة موز شذبت أفرعها ، أو فجلة مقلوبة قام مزين بقصقصة أوراقها . وأدت حركة السلطان إلى توطيد العمامة فوق رأس سموه ... ولو إلى حين . فقد كانت هذه العمامة المركبة تركيبا مزجيا مصدر قلق سلطان طول المقابلة . وكانت يداه فى حركة مستمرة نحو رأسه ، كما يفعل مانولى بقبعته حين يخشى أن تطير بها الشمأل لتهوى بها تحت عجلات ترام أو أوتوبوس لا يترفق بالخشب والحديد بله الخوص !.

جلس السلطان على أريكته وأشار علينا بالجلوس ، فجلسنا ونحن نلاحظ شعره الفاحم اللامع يتدلى من عمامته طويلا كشعر الأرتست ، ونتفرس فى وجهه وهو يدير فينا عيونا باسمة تشف عن طبع دمث . وقد أدركت لأول وهلة أننى أمام رجل حالم ينظر إلى العالم من وراء خيالاته . ويخلو إلى شياطين هوياته الفنيه ، يقرض الشعر أو يسمع الموسيقى فى أوقات الفراغ الطويله التى تتركها له مهام السلطنة . عندئذ فهمت سر وجود البيانو والفونوغراف فى غرفة التشريفة الكبرى .

وبعد أن أجال فينا بصره المتردد الحائر وكأن الحياء ألجم

لسانه ، رفع يديه إلى عمامته ثم نطق بجملة واحدة قصيرة بلغته المجهولة التى كان رنينها فى أذنى كما يلى :

— منم منم منم .

وقام السكرتير الخاص بأعمال الترجمة فى أمانة واضحة إذ نطق بانجليزية فصحى :

— إن حضرة صاحب السمو السلطان يود أن يعبر لكم عما يخالج نفس سموه من سرور باستقبالكم فى مملكته ، ويتمنى لكم النجاح فى مهمتكم الخطيرة ، ويدعو الله أن يبارك لكم فيها .

فأجاب رئيسنا :

— قل لسموه إننا نشكره على تفضله بالسماح لنا بالعمل فى مياهه ، وباعارتنا سفينة شراعية برجالها ليشتغل عليها فريق منا .

السكرتير الخاص : منم منم منم منم (بقدر)

السلطان : منم منم منم بروفسور ... منم منم كامبردج منم منم .

السكرتير الخاص : إن سمو السلطان يذكر بالخير البروفسور ... الذى كتب من له كامبردج يوصى سموه بكم خيرا .

رئيسنا : (قال كلاما كثيرا)

السكرتير الخاص : منم منم منم (ثلاث مرات لا رابع لها)

السلطان : منم .

السكرتير الخاص : حضرة صاحب السمو السلطان يكرر لكم أحسن تمنياته ويدعو الله أن يباركم . وسموه على استعداد لتقديم كل المساعدات التى تطلبونها .

ثم انقضت فترة هدوء قطعها علينا قلق السلطان الدائم على عمامته ، فرفع يديه إلى أعلى إيقافا لها عما لا تحمد عقباه .

وبعد حديث عن الأزهر وفضله على العالم الاسلامى وعن بعض أفراد الرعية يتلقون العلم على حساب السلطان ، شعرت كأن سموه سئم مهام الدولة وهذا الحديث الرسمى المتصنع . فقد تمتم بما معناه أنه سمع عن المصريين أنهم موسيقيون بارعون . وأطرقت برأسى متسائلا عما إذا كان سموه قد حسبنا تختا متنقلا . ولكن القومندان وهو أسكتلندى لا يعرف المزاح أجاب عنا نحن المصريين :

— الدكتور فوزى موسيق

السلطان : (يخاطبنى) منم منم منم (وأشار الى البيانو)

أنا (للسكرتير) : أخبر سموه أنه لا دراية لى بالعزف

على البيـــانو (ولو أطعت نفسى الأمارة لأضفت ، وإنما أجيد العزف على الفونوغراف) .

كلا ! يقينا إن سموه مصر على اعتبارنا جوقة من المهرجين فقـــد سأل عن نوع العزف الذى أمارسه . وتولى عنى الاسكتلندى الملعون القول بأنه عزف الكمنجة . وحمدت الله وأثنيت عليه ألا توجد على حيطان الممرات والدهاليز غير التروس واليطجانات ، وفى « أودة المسافرين » غير بيانو وفونوغراف .

وى ! لقد تمتم السلطان واهتزت ستارة الأراجوز ، ودخل الخدم وخرجوا ، ولبثنا بضع ثوان كانت دهورا ، أو لم أسمع السلطان يقول « منم منم سارونجى منم منم » ، والسارونجى أليس هو الكمنجة ؟

ورفعت الستارة الباتستا الحمراء ودخل رئيس التشريفات يحمل . . . اللهم ارأف بعبادك الموسيقيين ولا توقعهم فيما أوقعنى فيه القومندان الاسكتلندى !

كان رئيس التشريفات يحمـــل نفيرا فضيا كنفير الساكسوفون ، مثبتا فى هيكل كمنجة . أجل ، كان يحمل تلك الآلة البزرميط التى اخترعهـــا أهل الجازباند فى أمريكا

فاستعاضوا عن صندوق الرنين الخشبي فى الكمنجة بهذا النفير الساكسوفونى. كيف أفسر للسلطان «منم منم» بأن هذه ليست كمنجة وقد شدت عليها أوتار الكمنجة الأربعة ؟ وركبت لها حمالة الذقن كما فى الكمنجة ؟ وسلمنى رئيس التشريفات قوسا غزير الشعر مضبوط الشدة . ولكن كيف أوقع على أداة لم أحملها على كتفى يوما ولم أسمع صوتها ؟

أخذت هذا المسخ الموسيقى ، هذا النص سمكة والنص بنى آدم ، وطفقت أصلح أوتاره وقد تصبب العرق على جبينى خجلا وحيرة . ثم وضعته على كتفى وبدأت أمر بالقوس حذرا لأعرف نوع الصوت الذى سوف يخرج . فمن يدرى ربما خرجت من هذه الآلة أصوات الصفير والتزمير ، وقرقعة شخشيخات وصاجات وجلاجل ؟ هؤلاء الأمريكان، أليسوا قديرين أن يجعلوا من هذه الكمنجة چاز باند بأكمله ؟ فوا أسفاه على حياة قضيتها أتهجى سوناتات بتهوفن وموزارت وهندل وشومان تنتهى بأن أشتغل چاز باند أمام حضرة صاحب السمو سلطان . . . ملك البر والبحر والأربعة آلاف جزيرة !

لم يكن كل هذا ، ولكن الصوت كان غريبا على أذنى ، فهو

كمنجة مافيش كلام ، ولكنها كمنجة أصيبت بتضخم فى اللوزتين فكانت تنعر نعيرا بدل أن تغنى ، والأمر لله !

أجريت القوس بيـــد مرتعشة كما يعبث الطفل بآلة موسيقية . فخرج النعير مذبوحا مسلوخا ، وتحول حفيفا وأزيزاً وشخيراً ونفيراً ، وضرب الفارابى لحنا فناموا ، وضرب لحنا فقاموا وصلوا وصاموا . أما أنا فقد وقعت لحنا وكدت أقع من الخجل والارتباك .

أنا (للسكرتير مستنجداً) : أرجو الاعتذار لسموه فلست مستريحا إلى هذه . . . الكمنجة .

السلطان : منم منم .

السكرتير الخاص : لقد لاحظ سموه ذلك .

وخرجنا من الحضرة السلطانية لنعود من تلك الدهاليز والمعابر والممرات التى تشبه سكة ابو زيد ، حتى وصلنا إلى باب السراى وإذا برئيسنا الانجليزى يقهقه ضاحكا ، ويقول لى :

— يجب أن تطبع على كارتك منذ الآن يافوزى «والموسيقى الخاص بسمو سلطان . . . »

— ؟

— لقد ظفرت اليوم بخبر من أظرف الأخبار أكتبه للبروفسور....

— ؟

— «أثناء التشريفة طلب السلطان... كمنجة ليوقع عليها الدكتور فوزى ألحاناً مصرية. فجىء له بمولود عجيب نتج من زواج كمنجة بساكسوفون !»

ولم يكذب رئيسنا خبراً. فقد سمعته قبيل منتصف الليل يوقع على الآلة الكاتبة رسالته المعتادة إلى البروفسور. وكنت ممدداً على سريرى أستسلم للنوم وصوت الآلة الكاتبة يقرع فى قمرة الرئيس المجاورة لقمرتى، ويختلط فى رأسى بأصوات تمتم «منم منم منم»، هكذا:

« تك تك تك... تك... تك... تك تك... زى... منم منم... تك... تك تك تك... منم تك... تك ... زى.....»

وفى تلك اللحظة السعيدة بين النوم واليقظة، حين يغفو عقلنا ويصحو خيالنا ليمرح طليقا فى أجواء الأحلام، خلت الآلة الكاتبة تقول فى بيان انجليزى فصيح:

— تك تك تك ... تك ... تك ... وقد أنعم

عليه السلطان بلقب الموسيقى الخاص بسموه ، زىء .
حين وقع على آلة موسيقية عجيبـــة ، تقول للساكسوفون
يا أبى ، وللكمنجة يا أمى ... تك تك تك ... تك تك
... زىء .

حكاية الخروف

الذى أفلت من خرم ابرة

لم تكد الباخرة ... تغادر معابر عدن إلى عرض البحر فى رحلتها الثانية حتى توقفت غرفة التبريد عن العمل . وفسد كل ما على السفينة من زاد طازج . فألقينا إلى البحر بما يساوى خمسين جنيها من الأغذية طعاما سائغا للقروش الجائعة . ومع ذلك لم يفكر أولو الأمر بالعودة إلى الميناء . وللانجليز فى أمثال هذه المحن طابع خاص هو أحد عناصر القوة فى هذا الشعب الغريب . ولقد عجبت فى أول دخولنا البحر الأحمر من أن أرى رئيسنا وزملاءنا منهم سريعى القلق ، كثيرى التبرم ، حفازين إلى نقد رجالنا ، خلاقين من الحبة قبة . فأظهرت واحداً منهم على ما بنفسى من الدهشة لسلوكهم هذا وأنا أعرف من الانجليز رباطة الجأش وضبط النفس ، قال

لى : إننا فى بدء الرحلة وليس فى كل ما لاقينا أمر جلل . فلا تكن سريع العتب علينا فى هذه الخطوات الأولى وخلال الأحداث التافهة . إنما تعرف الانجليز فى الملمات ، إذا ما حزب الأمر وتوالت الشدائد .

ولست على يقين من تقدير زميلى البريطانى لفقد زادنا الطازج أعددناه لرحلة يطول أمدها فى عرض البحر إلى الثلاثة والأربعة أسابيع ، أيعده إحدى الملمات ، أم هو أمر تافه ؟ .

كل ما أعرفه أن رئيسنا لم يفكر بالعودة إلى الميناء لإصلاح غرفة التبريد وإعداد أغذية جديدة ، بل كان الأمر أن نواصل سيرنا تبعاً للبرنامج المرسوم . . . والفعل أن نجلس حول الخرائط نوقع مواضع محطاتنا العلمية فيما بين الشاطىء الأفريقى والشاطىء الأسيوى لخليج عدن والبحر العربى ، وأن يصدر القومندان أوامره إلى السفرجى الأول ، ليخرج « التعيينات الناشفة » والعلب المحفوظة من مخازنها . والبركة فى « البولبيف » و « الكارى » ، وعلب التونة والسردين ، وأكياس الدقيق وأفراد الرز وحزمات المكرونة ، وهراديم الجبنة الشستر . نعود إلى عدن ونتأخر عن البرنامج وعندنا كل هذا مع الماء والملح والفلفل ؟ كلا وألف مرة كلا !

حقا إنه لشظف من العيش أن نتبلغ كل يوم بالأرز والكارى والجبن واللحوم المحفوظة ، زهاء عشرين أوخمسة وعشرين يوما . ويقينا إنه لبلاء أن نشرب الماء دافئا فى جو من أشد أجواء العالم حرارة ، مع ما للماء من مذاق مقرف اكتسبه فى خزانات السفينة . ولكننا لم نركب هذا المركب فى نزهة بحرية ، بل كتب علينا الجهاد و « سوف تعرف الانجليز فى الملمات إذا حزب الأمر وتوالت الشدائد » .

ولقد عرفتهم أول المتبرمين بالتغذية السيئة والماء الساخن الآسن . ولكنهم رجال الشعب المجيد القوى ، كيف تثنى عزماتهم سفاسف الأمور ؟ وهذا الرئيس ينادى « إلى المحطة رقم ٥٣ يا أولادى ، أعد الشبكة «أجاسى» يام . أصدر الأمر باخراج جرافة «أوتار» يا فوزى ، ركب محاليلك يات . »

ولكن فوزى موحوس أكبر وحسة مع باشمهندس السفينة . فهذا الشاب اللوندرى الرقيق الوسيم ، الذى تنتهى آماله إلى عمل ثابت على الأرض اليابســـــة ، ومنزل ريفى بضواحى لندرة ، وزوجة تعنى بالهوم ، يتحمل مسؤولية كبرى أمام القومندان الأسكتلندى الحاد الطباع . وهو المتكفل بآلات غرفة التبريد ، وقد حاول جهده إصلاحها

ونحن مرابطون فى عدن. فأصلحها أو ظن أنه أصلحها فخاب ظنـه قبيل الرحيل . وخرجنا إلى عرض البحر فى ميعادنا والباشمهندس ملبوخ بين آلات التبريد وصنابير غاز كلورور الميتيل الذى يمدها بالبرودة . وقد بلغ من إخلاصه لواجبه أن عرض نفسه لتأثير هذا الغـاز المخدر حتى تشبعت به أنسجته وأجهزته . وهو اليوم صريع على ظهر السفينة عند مؤخرتها لا ينفع فيـــه دواء ، وعلاجه الراحة والتهوية والسوائل والمسهلات التى تساعد جسـده على التخلص من غاز كلورور الميتيـل . وإذا لم يكن الهواء نادراً فى عرض البحر، ولا المسهلات نادرة فى الأجزاخانة، فقد خلت السفينة من مأوى يستريح فيه المريض المبنج .

كان واجبى الأول كطبيب السفينة أن أشير بالعودة إلى الميناء لنقل مريضى إلى المستشفى، حيث يبقى بضعة أيام تحت عناية الممرضات أكثر من تطبيب الأطباء . ولـكن رئيسنا طبيب أيضا ، يقع لعينيه ما يقع لعينى ، فلمـاذا لا يشير هو بالعودة وبيده الأمر؟ إنه إنجليزى « وسوف تعرف الانجليز فى الملمات إذا حزب الأمر وتوالت الشدائد » . فلعل ما يبدو لعينى كشدة وملمة لم يبد كذلك لعينيه ، أفأذهب وأشير

بالعودة ليحسب على ذلك ضعفا واستسلاما للتافه من الأمور؟ فلنحاول علاج الرجل بما فى استطاعتنا .

ولـكنه ينحدر منا سريعا إلى غفوة قد لا يفيق منها ولا تجدى وسائلنا فى إيقاظه . لذا عولت أن أتحمل مسؤولية عودة السفينة والتأخر عن البرنامج ، فإن واجبى الانسانى يتقدم واجبى العلمى .

ذهبت إلى القومندان وأشرت عليه بالعودة ، فجمعنى ورئيس البعثة . ومع أننى على يقين من أن ما أشير به هو ما يريده الجميع على ظهر الباخرة إن لم يكن لعلاج الباشمهندس فللتخلص من الأرز والكارى ولبخات البوليف ، فان لجنتنا الثلاثية لم تقرر العودة إلا بعد أن استوثقت منى « بصفتى المسؤول مباشرة فى هذه الحالة » بأن ما أشير به هو السبيل الوحيد لإنقاذ حياة الرجل .

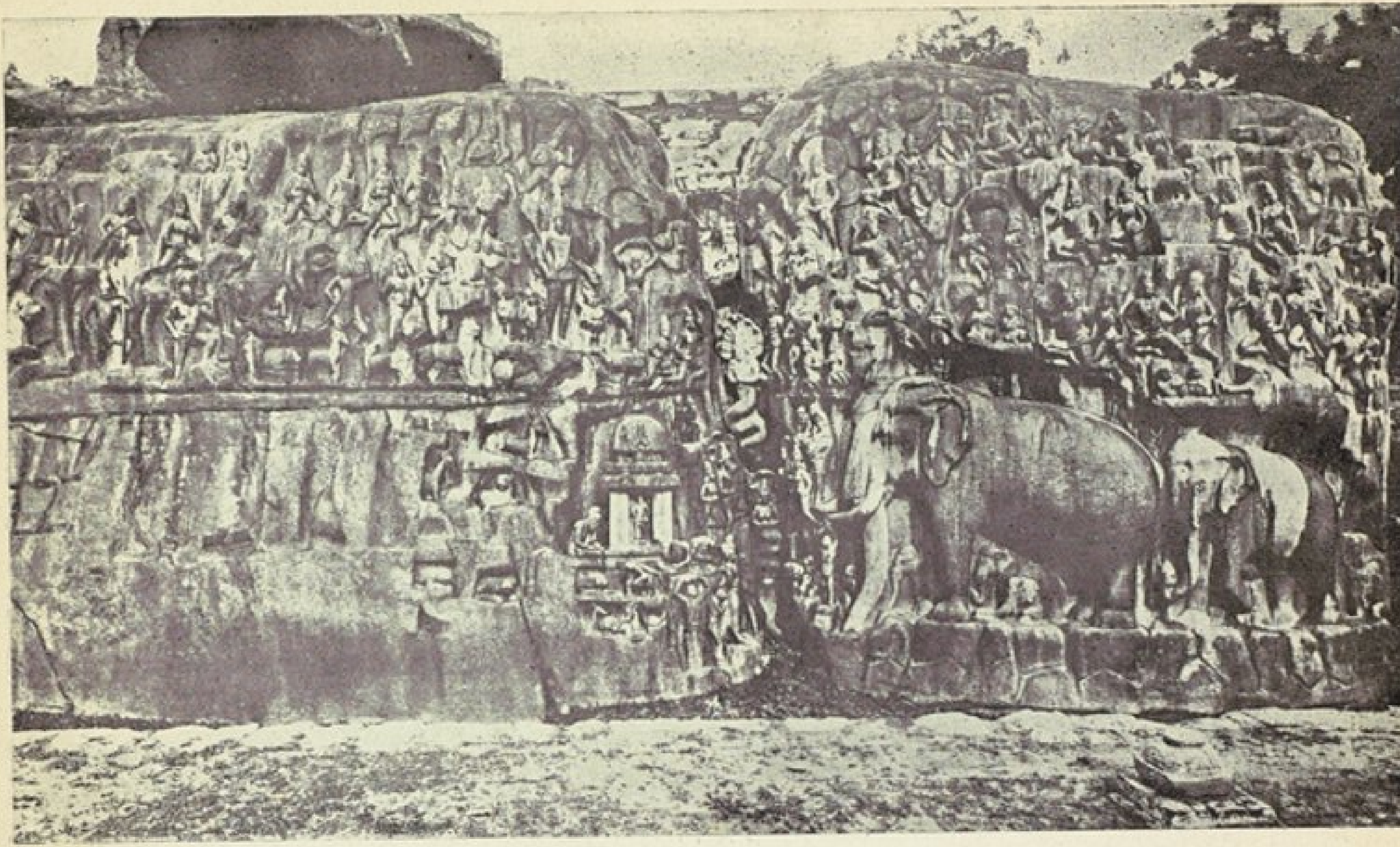
وحولت السفينة اتجاهها نحو عدن والكل فرح بهذا الحل، ولو أن الكل يخفى شعوره تحت ظاهر من الجد، وكأننا نقول « إنما نعود لنقل المريض إلى المستشفى » ، وإذا كانت هذه هى الحقيقة فإنها لم تكن كل الحقيقة . والشهيد على ما أقول علب البوليف والأرز والكارى فى الصباح كما فى المساء .

وبعد أيام قلائل عاد إلينا مريضنا فى دور النقاهة وخرجنا إلى البحر دون أن نتمكن من إصلاح الثلاجة . ولكننا فى هذه المرة استضفنا أزواجا من الدجاج اليمنى تكاكى فى أقفاصها ، وقطيعا من غنم بربر تثغى وتمأمىء فى زريبة أقامها النجار لنا إلى جانب من مقدمة السفينة .

وكان السفرجى يذبح من الخراف واحدا كل يومين فيكاد يكفى إطعام الأربعين فماً . ولست أنسى خراف بربر فى زريبتها البحرية المرتجلة ، ولا منظر السفرجى الأول وهو يعلفها . إنما كنت أتجنب منظر ذبحها ما استطعت .

ولست أنسى تبرم البحارة بلحمها اليابس وقلة مايصيبهم منه يوميا ، وشكواهم إلى ساعة الغذاء وهم يمرون بى حاملين صحافهم الألومنيوم تسبح فيها بضع قطع من البطاطس يتصيدون لى من بينها بعد عناء قطعة من العظم علقت بها فتائل من لحم كأنه نثارة الخيش .

يالروح المزاح عند بحارتنا ! فقد استطاعوا بهذه الروح أن يتساموا فوق المحن . ولقد شهد لهم بهذا رجال البعثة ، ورددت الصحافة البريطانية شهادتهم . ذكر البحارة حكاية المطعم البلدى ، والزبون الذى عثر على « نحلة لعب » فى طبق



صخرة « ماها بالي بورام » — جنوب الهند (أنظر صفحة ٧٨)

« المبرومة » فنادى على صاحب المطعم بين حلله . يا أسطى هات واحد قطان » . فكانت كلمتهم السائرة طول هذه الرحلة وهم يحملون صحافهم وبها كلاكيع العظام الآنفة الذكر « يا أسطى هات واحد قطان ! »

وذات يوم أحد — وكان يوم التفتيش الأسبوعى — نفخ البروجى فى صورة نوبة الاستعداد للتفتيش . ولبست جاكتى البحرية وقلنسوتى لأصطحب القومندان أثناء دورته كالعادة . ومررنا بالزريبة نسأل عن صحة سلامة ضيوفها العجاف ذوى الأنوف السامية المعقوفة . والقومندان رجل دقيق الحساب وقد ضرب أخماسه فى أسداسه فلاحظ أن خروفا منها قد نقص . فأجابه الموكل بالزريبة « الخروف وقع فى البحر » . ودرت ببصرى ألتمس الموضع الذى يمكن للخروف أن يفوت منه فلم أهتد اليه ، وقلت فى نفسى دون اقتناع « ربما ! وما دام الموكل بالزريبة يقول بهذا فلا مفر من أن يكون الخروف قد وقع فى البحر بطريقة مجهولة لى . ما شأنى وذلك ؟ فليحقق القومندان اذا راق له التحقيق » ولكنى أعدت النظر الى الخراف الباقية والى الفرجات بين تخشيبة الزريبة ودرابزون السفينة ثم ضحكت فى سريرتى

وأنا أقول « لأكتبن يوماً حكاية الخروف الذى أفلت من خرم ابرة » .

ولم يعر القومندان الأمر اهتماماً ، فكل ما يهمه من أمر هذه الخراف أن تكفينا حتى نصل الى الميناء ، وهى كافية فلا خوف علينا ولا نحن حزينون .

ولكنى ذهبت أتقصى الأمر سراً ، معتمداً على ثقة البحارة بى ، فلم أوفق الى الاهتداء . وذهبت أسأل « الكنجى » أى المهندس الثانى ، وهو رجل اسكندرانى بارع النكتة ، حسن السمر ، محب للغناء والطرب . له طريقة فى الاحتجاج على مالا يرضيه كانت كفيلة بان ترفه عنا تعب أيام . وحقاً إن خير الكلام وأفضل أنواع الاحتجاج ما قل ودل . واحتجاج الكنجى كان شخرة اسكندرانية هائلة ، يشهد المحيط الهندى بأنها كانت الأولى من أنواع الأصوات الآدمية تدوى بأصدائها مياهه . رأيته ذات مساء جالساً عند مؤخرة السفينة وقد أولى الجميع ظهره . وسرح بصره فى الأفق . وكان ذلك عقب مشاحنة له مع أحد الضباط جاء يشكو اليه انطفاء بعض أنوار الملاحة ، فلما أن قابل شكواه بالشخر اللازم ، وقام يصلح الأنوار . عاد اليه الضابط ينهره ، فولاه ظهره .

ومررت به فى تلك اللحظة فجعل يتكلم كالمخاطب نفسه «أنوار الملاحة (شخرة). إحنا فين هنا، إحنا فى وسط البحر يا عالم، فى وسط المحيط الهندى. هى. هى. يا أنوار الملاحة، ما تقولش احنا راكبين أتومويبل فى شارع الكورنيش (شخرة)».

هذا الكنجى يأنس اليه البحارة. يوافيه من فى «الراحة» منهم إلى مجلسه المختار كل صباح عقبورديته الليلية. ومحله المختار هو باب الوجاق (المطبخ) من ناحية «السقالة»، حيث يبدأ حديثه مع الطباخ والسفرجى الأول بالسؤال عما يعدونه للغذاء فى ذلك اليوم، ويتحرق شوقاً الى الملوخية والبامية والفول المدمس، ويسخط على الدنيا وما فيها لأن نظام الطهى والأكل على السفينة نظام انجليزى تلعب فيه اكوام البطاطس وهراديم اللحم المسلوق دورا كبيرا.

التجأت اليه لعلى أجد عنده الخبر اليقين عن الخروف المسكين، الذى قيل بأنه مات غرقاً. ولكن الكنجى ضحك لقولى «إن الخروف لابد أفلت من خرم إبرة»، ولم يزد.

إلى أن عدنا إلى مصر ورجوته أن يكشف لى عن الحقيقة «لتطمئن نفسى»، وهذا ملخص حكايته:

ضاقت نفوس البحارة — ومعداتهم — ذرعا بقلة تعيينهم من اللحم ، وتواطأوا فيما بينهم على اختطاف خروف تحت جنح الظلام دون أن يعلم بأمرهم رئيس السفرجية الذى ينام ملء جفونه طول الليل . وتكفل «الواد .... » بذبح الخروف وتوضيبه : «أصل الواد الـ ... جزار ابن جزارين» . وتقاسم البحارة خروف بربر المذبوح تحت جنح الظلام . ولعلمهم بأمانة الكنجى على سرهم أرسلوا يعرضون عليه « الكبدة والكلاوى » .

وفى رأيى أن الدافع على المؤامرة لم يكن الجوع وحده بل روح الشيطنة أيضا . فالبحارة كما قلت فى موضع آخر أولاد عفاريت . وفى تواطئهم ليلا على حياة خروف «فصل» لم يكسبهم قسطا إضافيا من اللحم فحسب ، بل أدخل على نفوسهم المرحة سرورا صبيانيا ربما كانوا يتحدثون بأمره إلى اليوم .

هذا ما كان من أمر رحلة حافلة بالحوادث ، مليئة بالمشاق نتيجة وقوف آلات التبريد عن عملها .

وما كان من أمر الخروف الذى أفلت من خرم إبرة ..

II

صور

فينوس من الأبنوس

ابنة البنجاب

ماهابالي بورام

المدن المدفونة

شجرة البودي المقدسة

بريم

خوريا موريا

أبراج السكون

مجاج مبتغارام

ويحك يابن بطوطة

ڤينوس من الأبنوس

مسلمة هذه البربرية كما تقول . ولكن يغلب على ظنى أن إسلامها قشرة تشققت فى كل موضع ، لا لأنها تشرب الخمر فى رمضان — فالله غفور رحيم — ولا لأنها تحترف الدعارة — فهو الوعد — ولا لأنها وقفت عارية أمام جماعتنا — وقد اعتدنا ذلك من المسلمات فى غير موضع من أرض الله الواسعة — بل لأن فى حركة خلعها لردائها سهولة مقلقة . خلعته تبعا لسليقتها ، ورجوعا إلى طبيعتها وحياتها الأولى فى الحرج الافريقى . والمرأة المتحضرة إذ تتعرى تعود هى أيضا إلى فطرتها . ولكنها فى حركة التجرد تتخطى أجيالا وآبادا من المدنية لتتصل بأمها الأولى طريدة الفردوس . أما هذه البربرية فلا تفصلها عن حرجها فى الزمان والمكان سوى فترات وخطوات معدودة . جلبابها وضع من الأوضاع لم تفهم ضرورته بعد . وربما كان شعورها فيه قلقا كشعور

المتحضرة حين تتجرد . ولا عبرة بالمتحضرة إذا اعتادت العرى فى تأدية حرفة معينة . فالتجرد هنا نتيجة الاعتياد وليس عودة إلى الفطرة . ولن أنسى اللحظة التى رأيت فيها واحدة من هؤلاء ألقت بها المقادير فى أول درك من دركات الشقاوة النسائية ، وطلبت منها أن تخلع كل ما عليها من ثياب خضوعا لاجراءات رسمية مخصوصة . وقد أطرقت برأسها إلى الأرض وتراخت مفاصلها ، واحتفظت بقميصها معلقا بيديها تحاول أن تستر به جسدها ما استطاعت أن تستره . أما هذه البربرية فما ان رغبنا اليها أن ترقص حتى نزعت رداءها كأنه قشرة الموز ، وظهر أنه كان كل ما احتوى جسمها من غطاء وأن كل ما قد نتسامح فنسميه غطاء للعورة هو . . . عقد من الخرز الأبيض حزم وسطها ثم انحدر على تيجان فخذيها . واستحالت تلك المرأة السوقية التى كانت تتعثر فى فستان من الحرير اليابانى إلى حسام أسود يلمع فى ضوء سراج من البترول إلى جسد نابض بالحياة يتحرك طليقا ، وقد أحال الحجرة الحقيرة الى حرج أفريقى لا تكاد الشمس تنفذ من بين أغصانه الملتوية المتعانقة ، وأوراقه العريضة تتصبب ندى ورطوبة لزجة . جسم لا عيب فيه سوى دقة أطرافه . أما

استقامة الجيد واستدارة الأكتاف ، ورحابة الظهر ، وانتظام الصدر ، وتقبب البطن ، واستدقاق الخصر ينفرج أقواسا تنحدر فى ميل خفيف إلى حيث الركبتين ، فقد كانت نموذجا لأكمل ما يكون عليه جسم الأنثى .

ورقصت البربرية على توقيع غناء صاحبة لها ، وهو غناء كله حنين إلى فطرة بهيمية ، يختلط فى خيالنا بقصة جداتنا عن جارية من « نيام نيام » ارتدت الى وحشيتها فى بيت واحد من أسلافنا بالقاهرة . دخل عليها أهل البيت فوجدوها تغنى وترقص عارية . حول مأدبة مرتجلة قوامها طفل من أعمامنا الأولين .

كلا ، لا يمكن أن تكون تلك البربرية مسلمة . فرقصها وغناء صاحبتها صلاة وحشية الى صنم الحرج فى صحبة العشيرة تدور حول قربان آدمى ، على وقع طبول مفزعة وتحت الأنظار المغناطيسية لساحر القبيلة جلاب الغيث .

ابنة البنجاب

نسيت اسمها . ربما كان «جليلة» أو ما شابه ذلك . ولكنى أذكر أنها فتاة مسلمة من البنجاب . دخلنا فى كراتشى إلى الطابق الذى تغنى وترقص فيه ، وجلسنا على بساط قذر ، أو هو خرقة ما . واتكأنا على وسادات مرتكنة إلى جدران الغرفة ، وسادات لا تنذر بخير ، مظهرها وملمسها ومخبرها تبعث فيك رغبة ملحة على الهرش دون سبب أو بسبب .

وكانت جليلة جالسة أمامنا على البساط مثلنا ، وسط تختها المكون من لاعب «الساورنجى» وهو الكمنجة الهندية يوقع عليها صاحبها واقفة كالرباب ، وضارب النقارية ، وهى طبلات مصغرة من طبل النقرزان . وربما كان هناك لاعب ناى وضارب دف ، ولكنى لا أذكر جيدا سوى «الساورنجى» والشيخ المهوب الملتحى الذى كان يوقع عليه ، والنقارية وصاحبها العصبى النحيف الذى ذكرنى ببعض القهوجية عندنا ممن

يسرفون فى الموبقات وينتهون إلى سراى المجاذيب أو محكمة المخدرات . النقارية فى الموسيقى الهندية كالدف أو الرق عندنا . فهى سيدة « الواحدة » وضابطة التوقيع ، صاحبها هو الرئيس الفعلى للتخت . ويكفى أن تراه فى اللازمات أو الفواصل يضرب بعصيه جلد الطبلة آنا وخشبها آنا آخر ، وأن تنصت إليه ينتقل من توقيع إلى توقيع ، لتعرف أنه المتحكم فى الراقصة ورجال التخت ، وتوقن أن « التم والتك » هى أهم مافى الموسيقى الهندية كما أنها أهم عناصر الموسيقى الشرقية — وفى رأيى أنها إحدى مميزاتها التى تستحق الذكر .

وقدمت إلينا أوراق «التنبول» مع «الفوفل» . ولست اعرف ماهو التنبول ولاماهو الفوفل أكثر من أن الأول أوراق شجر (وهو معروف !) والثانى حبوب نبات (وهو معروف أيضا !) كحبوب الفلفل الأسود ولكنها رمادية اللون . وأن التنبول والفوفل نباتات يمضغها الهنود ، ويقدمون لك منها ورقة وبضع حبات ، كما تقدم القهوة فى بلادنا . والويل لك إن مضغت أوراق التنبول ، فهى كالحناء تحول شفتيك ولسانك ولثتيك إلى لون أحمر قان ، ربما راق لمن يهمهم الأمر .

ولكن جماعتنا كانت على حذر ، فقبلت هدية أصحاب المكان ولم تذقها .

وكانت فتاة البنجاب متربعة وسط التخت الذى جعل يطرز حولها من النغمات والتوقيعات ما ركز النغم فى أذنها ثم بدأت تغنى غناء الهند الشمالية (السند والبنجاب وراجپوتانا كشمير) وقد بدا لى أن هذه الموسيقى خليط من الفارسية والعراقية والسورية مع شىء من موسيقى أواسط آسيا .

ثم انتصبت قائمة وجعلت ترقص رقصا توقيعيا لا فن فيه ، يعتمد على دقات قدميها وقد أحاطت ساقيها بخلاخلين من الجلاجل ، وعلى حركات ذراعيها إلى أعلى وخلف رأسها أما الجسم فيغلب عليه الثبات ، ولا تكاد الراقصة تتحرك فى أكثر من موقع قدميها . ثم هى تغنى وهى ترقص ، ولا ينتظر لمثل هذ الاشتراك أن يكون الرقص عويصا والغناء صعبا .

« جليلة » هى هذا الشرق الطويل العريض الفارغ ، هى تلك الشعوب التى ما زالت تفكر وتحس باحساس القرون الوسطى ، وتصر على حسبان بواقى حضاراتها البائدة لا ملكا للتاريخ والمتاحف ، بل أداة للحياة حتى فى القرن العشرين .

لم تثر فى فتاة البنجاب ولا موسيقى السند أكثر من

إحساس بتدهور الشرق وخيبته الثقيلة . وقد ذكرت ، وأنا أشاهد هـذه البنجابية وتختها وجمهورها ، ليلة لى فى باريس ، حملتنى فيها قدماى لا إلى كونسيرات الموسيقى السمفونية ، ولا الى حفلات إيزادورا وبافلوفا وأرچنتينا ، ولا إلى أوپيراث فاجنر ومسور جسكى وريشارد شتراوس ، بل إلى مقهى عربى جوار جامعها المشهور . وأجلت بصرى فيما حولى فوجدت الشرق كله ممثلا فى الجمهور وقد تمـدد أفراده على مقاعد منخفضة ، ويدخنون تارجيلاتهم أوسجائرهم فى أفمام من القهرمان ، وينصتون إلى تخت يغنى « يا منعشة يا بتاعة اللوز » ومنولوجست يلقى « شم الكوكايين خلانى مسكين » وكمنجاتى مشهور يوقع « تقاسيم » .

أدرت بصرى مرات كثيرة ، فلم تك عيناى تلق الا بوجوه مفعمة حيوانية .

فى تلك الليلة ملت على صديق وزميل جولاتى الفنية فى باريس وقلت له : « روحانية الشرق » .

فاجابنى : « يغور الشرق ياسيدى إذا كان كده » .

وفى الهند رأيته كده وأسوأ من كده !

ماهابالى پورام

كانت « كنجا » ابنة الشمس وهيما لايا تعيش فى السماء. وود « باجيراتا » لو نزلت إلى الأرض لتغسل بمياهها القدسية رماد أجداده. وسافر « باجيراتا » إلى الهيمالايا حيث انقطع للعبادة متقشفا. ودعا « براهما » حتى استجاب دعاءه ورضى أن تهبط « كنجا » من السماء. إلا أن مياهها سوف تكتسح العالم إذا لم يتلقها «شيفا» أولا. فاتجه «باجيراتا» فى عبادته نحو «شيفا» حتى استماله وتلقى « كنجا» فوق رأسه، ولكن مياهها كادت تضيع فى شعره الكث دون ابتهالات « باجيراتا » .

وانحدرت « كنجا» إلى الأرض يصاحبها «باجيراتا» حتى مياه المحيط. وجاء القاصى والدانى يشاهدون فى خشوع ذلك النهر الرائع (الكنج) ، ويغتسلون فى مياهه المقدسة.

جهد الفنان المجهول أن ينحت على صفحة صخرة سمراء فى وادى «ماهابالى پورام» ما أوحت به إليه تلك القصة الالهية ..

وليس لعبقرية أقل بذخا من عبقرية «ميكيل أنجيلو» أن تستطيع ذلك . وصخرة «ماهابالى پورام» قد حملتنى على التفكير بأكبر فنانى الرينسانس ، ولعله أعظم من أنجبته أوروبا من رجال الفن . والفنان المجهول الذى نحت صخرة «ماهابالى پورام» ربما كان أكبر من ظهر فى آسيا من رجال الفن . فقد حول هذه الصخرة الصماء غير المستوية إلى سمفونية منظورة ، إلى عالم مزدحم بتماثيل آلهة وآدميين وحيوانات تتجه جميعها إلى شق فى منتصف الصخرة مثل فيه الفنان «كانجا» فى صورة حيات (ناجا) ذات رؤوس وصدور آدمية .

أنظر إلى هذه الفيلة تيمم شطر النبع الالهى حولها صغارها وإلى السباع والغزلان والقردة تجرى لتشاهد «كنجا» ابنة هيمالايا والشمس تغدق نعماءها على الأرض . أنظر إلى صاحبى «داديكارنا» الهر المتقشف وقد انتصب قائما على قدمه الخلفية ورفع الأخرى وطرفيه الأماميين إلى أعلى فى حركة نساك الهنود ، وإلى الإله «شيڤا» والإلهة «دورجا» ، وإلى النساك وقد بدت ضلوعهم تقشفا وانحنت رؤوسهم خشوعا . أنظر إلى الملوك والأمراء يهرولون نحو النهر المقدس يتمثل فى الحيات الآدمية «ناجا» .

لو أن نحاتا إغريقيا أعمل أزميله فى هذه الصخرة تحت شمس «أتيكا» ! ويحى لقد أفسدت الصورة التى طبعتها فى ذكرانى صخرة «ماهابالى پورام» وأفقدتها كل معانيها فى نفسى . فلم يكن الاغريق ليصور نبعا مقدسا . بل كان فى الأغلب ممثلا «أرفيوس» فى الشق الأوسط وهو يوقع على قيثاره المعجب، وحوله الإنس والجن خاشعة ، والأوابد مستكنة ، تنصت إلى موسيقى «أرفيوس» الحزين يبكى ويستبكى زوجته الرقيقة «يوريديس» . ولم يكن الفنان الإغريقى ليهمل تنسيق تلك الجماعات فى وضع ترتاح له العين وتهدأ اليه النفس .

أتيكا ! ليس غيرك مستطيعا تهدئه الطباع وإسلاسها . ومهما ارتفع هذا الفنان الهندوسى بخياله وإحساسه وفنه فهو عاجز إلا عن إثاره القلق فى نفوسنا . وهو مطبق على أنفاسنا ، مشوش مشاعرنا بذلك «الفريسك» الصخرى يئن لهفة وخشوعا لتلك الآلهة القاسية نزلت على البشريه نقمة ، وأحاطتها بحلقة التناسخ ، تذكرها بأن لا خلاص لها من ذنوبها وذنوب أسلاف أسلافها حتى ولا بالموت ، وبأن كل جهودها فى الجوع والعرى والعذاب الجثمانى على مر الدهور لن تصل بها فى أحسن ما تنتظره من ثواب إلا إلى الفناء النهائى ، نقطة ماء تعود الى المحيط ، نيرفانا !

المدن المدفونة

تموت المدائن كالناس موتا طبيعيا أو أثر حادث . ومع أننا نعرف كثيرا من التفاصيل عن موت المدن العنيف نتيجة للزلازل وهياج البراكين واجتياح الموجات المدية للشواطىء فإننا لا نعرف تاريخا يفصل الموت الطبيعي للبلاد ، حينما يغادرها الناس نهائيا ليبتنوا أو يستقروا فى مدينة أخرى تبعا لتطور طبيعي فى العمران . نعم إن المؤرخين يدرسون عوامل انحلال المـــدن العامرة ، ولكننا لا نسأل هنا عن المؤرخ بل عن الكاتب الذى يصف لنا اللحظات الأخيرة فى أجل المدن المهجورة . ويقينى أن كاتبا من الكتاب لابد وأن يكون قد عنى بمعالجة هذا الموضوع المحزن ، ولم أوفق بعد إلى مطالعة وصف من هذا القبيل .

وللطبيعة والناس طرائق شتى فى محو آثار المدن المهجورة فالرياح والرمال والأمطار تنجح نجاحا كاملا أو ناقصا فى

القضاء على بقاياها . والناس يهدمون القائم من مبانيها لينتفعوا بموادها البنائية فى إنشاء معابدهم ومنازلهم الجديدة . وقد بلغت اللعنة على آلهة مصر القديمة حداً كان المصريون فيه يهيلون على البلد الدارس كل قاذوراتهم ، بينما هم يبتنون قراهم الجديدة من اللبن . فكان من ذلك تلك التلال العفنة التى تقوم دليلا على إنكار الشعب لماضيه المجيد ، ورمزاً على حالة التدهور ووهدة الانحطاط التى انحدر إليها هذا الشعب فى حقيقة كبرى من تاريخه العجيب .

وفى سيلان الممطرة المشجرة ذات الجو الرطب والتربة الكريمة يستولى الحرج الاستوائى على بواقى مدتها فيغيبها تحت طبقات من الأغصان المشتبكة ، والشجيرات والأعشاب الكثيفة . هكذا عفت آثار بعض البلاد الكبرى الواقعة وسط الجزيرة أمثال « پولانَاروا » و « آنوراداپورا » حتى كشف عنها المنقبون البريطانيون فى أواخر القرن الماضى .

ولقد وقفت بآنوراداپورا فى عودتى من الهند . وقضيت صباحا أجوب وسط ما كشف عنه الأثريون من عاصمة سيلان القديمة ، وأشرف على منظر ذلك الصراع الدائم بين الطبيعة المجتاحة وبين جهد الإنسان . فهنا أنشأ « السنهاليون »

عاصمتهم قبل أن تقوم لروما قائمة . وهنا كان مهد التبشير بالبوذيه فى الجزيرة منذ أوفد الامبراطور البوذى العظيم « آزوكا » ابنه « ماهيندا » فى القرن الثالث قبل الميلاد يحمل رسالة « جوتاما » الروحية إلى الملك حبيب الآلهة « ديفانا مبياتيسا » .

ومنذ ذلك العصر الذهبى للبوذية طفق ملوك سيلان البوذيون يقيمون فى « آنوراداپورا » القصور والمعابد . فكان هنا القصر النحاسى العظيم والمعبد الكبير « ماهاستوپا » وغيرهما من المنشآت مما التفت عليه الأغصان والأعشاب كأذرعة الأخطبوط ، وامتصته امتصاصا .

وما أنقذه الأثريون أقل من أن يرسم صورة لتلك الحاضرة الكبرى ، ولو أن فيما نراه اليوم من عمد ودرج وأركان دليلا على ما وصل إليه فن الزخرف والحفر من الرقة وسلامة الذوق .

وقد وصف « فانهين » الفقيه البوذى الصينى الذى زار « آنوراداپورا » فى القرن الرابع بعد الميلاد كيف كان يجىء إليها « كل من استضاء بنور البوذا » ليساعد فى تمهيد الطرق وزخرفة المنعطفات ونثر الأزهار وإطلاق البخور والأعطار فى

مناسكها ومعابدها . وكيف رأى قاعات الوعظ الكبرى تقوم عند تقاطع طرقها المستوية المستقيمة .

وأكثر مااسترعى بصرى وسط الركام ، صناعة المثال فى تصوير الطيور والفيلة وإقامة الصور البارزة الحرس المعابد . ولقد لمست روحه الصافية التى أوحت إليه بتماثيل « البوذا » جالساً القرفصاء وقد علت وجهه ابتسامة هادئة تضفى على الطبيعة حوله سعادة ، وتفعم كيان الناظر هناء داخيا .

والحق أن هـــذه الابتسامة ، شعاع السريرة الآمنة المطمئنة ، ووقفة « التماثيل الحارسة » بباب المناسك أشرقت أساريرها بابتسامات شبيهة ، وتلك المظلة الحجرية وسط الحرج لا يعرف عنها إن كانت مأوى لناسك أو منبرا لخطيب ، هى كل ما فزت به فى تجوالى بآنوراداپورا . فالفن البوذى غريب عنى ، والمدينـة المدفونة لم يبق منها كثير . ولكن ابتسامة البوذى وحراس معابده ومناسكه ومظلة عباده — بل ومظهر الطفولة فى رهبانه ذوى الإزارات الصفراء والبرتقالية — كانت أكبر عون لى على فهم البوذية وعطفى على تعاليمها . فهى حركة تحرير كبيرة من الإرهاق الهندوسى كما كانت المسيحة حركة تحرير الطبقات المبذولة

فى الامبراطورية الرومانية .

وقد يعسر على من يزور المعابد البوذية الحديثة أن يحس، خلال التعقيدات والاضافات والحليات التى أغدقها البوذيون على معابدهم فيما بعد ، بذلك الصفاء والهدوء الذى شعرت به حيال الفن البوذى فى عصره الذهبى . هنا فى « آنوراداپورا » رأيت الصلة واضحة بين جلسة البوذا وابتسامته وبين كل قوس من أقواس الزخرف وكل ركن من أركان المدينة المدفونة

ولقد قرأت غير قليل عن مبادىء البوذية وحياة منشئها فى ضوء زيارتى لآنوراداپورا . لذا اصطدمت نفسى بمعبد « السن المقدس » فى كاندى ، وقد عادت إلى نقوشه الحائطية وتصاويره روح القلق والقسوة والتهديد بالعقاب . وكأنى بالروح الهندوسية ، التى انتهت بالتغلب على البوذية وطردها من الهند ، وقد نجحت بعض النجاح فى التأثير على الفن البوذى المتأخر فى سيلان . ولكنه نجاح غير كبير برغم كل شىء فإننى حينما دخلت أول معبد بوذى فى كولومبو عقب مغادرتى الهند للمرة الأولى — وهو معبد حديث بعيد عن البساطة الأولى — وشاهدت تماثيـــل البوذا قائما وقاعدا ومضطجعا ، وتنشقت رائحة الياسمين الذى يقدمه الزوار قربانا

لـ «جوتاما» الحكيم ، شعرت كأن نسيما رقيقا يهب على أرجاء روحى وقد تفتحت شرفاتها واستنارت بعد الظلمة والاختناق فى المعابد الهندوسية .

أجل ، كانت البوذية حركة تحرير روحى ربما استطاعت أن تجعل من الهند «يابان» أخرى فى آسيا لولم تتغلب الهندوسية من جديد على تلك البلاد التعسة . ومن رأيى أن نجاح اليابان يعود فى بعضه إلى بساطة الديانة البوذية ، ومحافظة اليابانيين على تلك البساطة . فلست أتصور اليابان بالغة ما بلغت لو أن العقائد الهندوسية تنيخ فيها على عقول الناس ، وتخنق روح الحرية فيهم خنقا .

شجرة البودى المقدسة

قادنى سائق الريكشو — أو حمارى الآدمى — إلى شجرة « البودى » المقدسة خاتمة لطوافى هذا الصباح بآثار المدينة المدفونة « آنورادابورا » . وترك فيتونه الصغير وتبعنى إلى حرم الجميزة التى تعد قدسا من أقداس البوذية ، يحج إليها اتباع «ساكيامونى» كما يحجون إلى معبد «كاندى» حيث أودع سن البوذا ، أو إلى قمة آدم فى سيلان حيث موضع قدم «جوتاما» الحكيم . الذى لم تطأ قدماه فيما نعرف أرض الجزيرة ، ولكنهم البوذيون يعتقدون بأن الفرجة الظاهرة فى إحدى صخور قمة آدم هى أثر من آثار أقدام البوذا . كما يصر المسلمون على اعتبارها موطىء قدم آدم بعد طرده من الفردوس . والهندوس على حسبانها ملمس قدم « براهما » فى إحدى تناسخاته الأرضية .

وجميزة «أنورادابورا» نبتت من فرع شجرة «البودى» التى

استنار البوذا بضوء العرفان وهو يستفىء ظلالها ، فى يوم من أيام القرن الخامس قبل الميلاد وقد انتهى به المطاف إلى مدينة « جايا » من أعمال الهند الشمالية .

ومنذ أكثر من ألفى عام غادر الإمبراطور البوذى « آزوكا » عاصمته فى « باتاليبورا » إلى منبت الشجرة المقدسة فى «بوداجايا» وصعد على كرسى من ذهب ليرسم حول أعلى غصن من أغصانها دوائر بالدهان الأحمر . وما إن انتهى من رسمه حتى انفصل الفرع عن الأصل ، وسقط الغصن فى آنية ذهبية من صنع الفنان الالهى «فيزما كارما» . الذى تقمص فى صورة إنسان ليعد عدة استقبال الغصن المقدس . وكانت الآنية ملأى بالطين مضمخة بالطيب .

وعهد الامبراطور «آزوكا» بالآنية وفرع شجرة «البودى» إلى ابنته الأميرة الراهبة « سنجاميتا » فحملتهما إلى جنوب الهند ، وعبرت بهما البحر إلى سيلان . وهناك هرع إليها الملك « تيسا » قبل أن تصل إلى الشاطىء . وغاص فى الماء حتى رقبته ، وحوله ستة عشر رجلا يمثلون جميع الطبقات . فتلقوا الهدية العظمى من يدى الراهبة الملكية . وحملوها إلى «آنورادانورا» . وهناك قام الملك بغرس الغصن المقدس فى

الموضع الذى ذهبت لزيارته هذا الصباح .

وأحنى سائق الريكشو رأسه خاشعا عند الباب المقفل حول جذع الشجرة القديمة ولم ينبس بكلمة . وقد شعرت فجأة كأن يداً سحرية قد ضربت بينى وبين حمارى الآدمى جبلاى وبسطت وهادا .

ما شجرة بين الأشجار لولا الروح التى تنفخها العقيدة البشرية فيها ؟ وما السماء والأرض ، والموج المزبد يتكسر على الشاطىء الرملى وبين جذور « المانجروف » ، وما القمر ينعكس فى مرآة البركة الهادئة تحيطها أشجار الخيزران ، لولا النفس الحساسة تتصل اتصالا غير مفهوم بما لا تفصح عنه الطبيعة بلسان ؟ فقد لا تكفى العين ولا الأذن لادراك روح الجمال . فهذا الزنجى يقف أمام تماثيل « برنينى » أو تحت سقف « السستينا » فلا يفهم ولا يحس بما تنطوى عليه أعمال الفن الخالدة من جهاد البشرية نحو أعلى ما يطمح إليه الروح الانسانى . بل هذا الجلف ينظر فى تبليم السائمة إلى لوحة « ريمبراانت » فاذا حاول أن يفهم تساءل عن ثمنها فاذا ماصفعت أرقام الجنيهات أذنه راح يقدر ثمن الإطار ، ثم طفق يفتش فى صفحة الصورة عن أحجار ومعادن ثمينة

تثاقل تلك الجنيهات العديدة .

لوحة «ريمبرانت» هذه ، وشجرة «البودى» المقدسة ، هما قطبا الاحساسات الانسانيـة . فالعقائد للنفوس البسيطة والإنسانية الدنيا هى والإحساس الفنى عند أهل الثقافة العليا طريق واحد لنتيجة واحدة : هز النفس البشرية هزا يرفعها عن الإحساسات المادية وطلاب الجسد إلى الذروات الفكرية التى هى ملك خاص لهذا الحيوان المفكر ، حظى بهـا دون رصفائه من الحيوانات الأخرى .

وأنا أمام شجرة « البودى » المقدسـة شبيه بالزنجى أمام عذارى « رافاييل » . فماذا يهمنى أن تكون هـذه الشجرة المحاطة بكل مراسيم التقديس ، الشجرة التى يدخـل البوذى إلى حرمها خافض الرأس إذ يشعر دون تفكير بأنهـا مهبط الحكمة . وبأن أغصانها تحفظ بالناموس الذى نزل ذات يوم من أيام القرن الخامس قبل الميلاد على البوذا وهو مضطجع تحتها ، ماذا يهمنى أن تكون فى أصلها غصنا من أغصان الشجرة الأولى ذاتهـا حملته الراهبة « سانجاميتا » لتغرسه فى هذه البقعة من سيلان منذ أكثر من ألفى عام ، هـذه البقعة التى وطأتها قدماى فى هذا اليوم من أيام فبراير ١٩٢٤ بدون

تحرج ؟ ماذا تهمنى الشجرة الأصلية أو فرعها ؟ وماذا عساى فاعل بنفسى الباردة أمام أقدام أشجار العالم وربما كانت أعظمها تقديساً ؟ أنا إلى السائق البوذى اليوم فى ظلال هذه الشجرة الشامخة الفارعة ، كالزنجى يصعد أكمة «الأكروبول» إلى جانب إرنست رينان . هو — سائق البوذى — نفس رفيعة تنسى فى ظلال الشجرة المقدسة الجثمان واحتياجاته المادية . وأنا بهيم يشكو هجير سيلان وتعب التجوال ، ويفكر بميعاد القطار الذى يعود به إلى كولومبو ، وبالوقت الذى سوف يستغرقه فى الغداء ودفع حساب الفندق . هو — إرنست رينان — نفس رفيعة تسجد للروح الذى أوحى إلى الفنان باقامة «البارتينون» معبداً للحكمة والجمال ، ورمزا لأجمل عصور البشرية وأسلمها تفكيراً وأقلها عبودية . بينما الزنجى ينفض براغيثه وهو يقرض رغيف خبزه . ويلتهم بنظره الشهوانى امرأة بيضاء تتسلق الصخور فتكشف عن بعض فخذيها . ضع هذا الزنجى أمام إلهه الصلصال أو الخشبى فاغر الفاه زاغراً بعيون مطلية بالأبيض والأسود والأحمر ، وإلى جانبه رينان يتأفف من حرارة الشمس الاستوائية ولدغ الهوام . يرتفع الزنجى فى درجات البشرية تبعا لتجرده

أمام إلهه بينما يكاد يهبط رينان إلى مرتبة الحيوان لولم يدرك بعقله الكبير معنى خشوع البربرى أمام صنمه .

يخطىء من يقصر وظيفة العقائد على الاصلاح الاجتماعى بحكم ماتنطوى عليه من عقاب وثواب . يخطىء من يقصرها على نوع من الحماية يلوذ بها المرزوء والملهوف . هى ذلك بلا شك ، ولكن دورها الأكبر هو الارتفاع بالحيوان الانسانى — حتى فى أحقر وأوضع ممثليه — إلى عالم كله سمو وتجرد عن طبيعته الحيوانية فى لحظات معدودات من حياته البهيمية . ربما كانت للحيوانات لغة للتفاهم ، والحيوان يتقوت ويتنفس ويتناسل ، ويستطيع ضربا من التفكير الغريزى ربما كان له فى وساطه أهمية تفكير الانسان الفطرى . ولكن ما اختص به الانســـان ، هو إمكان نفسه أن تهتز هزات خاصة لاعلاقة لها بالتفكير ولا بالاحتياجات المادية المؤمن فى حضرة إلهه ، والملحد أمام مظاهر الفن العليا .

لذا نعرف لأحط الأجناس البشرية ديانة ما . وليس ينتظر أن نكتشف يوما حتى لأرقى أنواع القردة معبداً أو صنما

وابتعدت عن الشجرة المقدسة عائداً إلى الفندق فى فيتون بحره حمار آدمى ، ولكنى كنت أقل غلواء وأكثر حكمة .

بريم

محطة فحم عند مدخل باب المندب ، مرفا طبيعى على المضيق بين جزيرة «بريم» وشاطىء شبه جزيرة العرب، جزيرة بركانية سوداء اللون ، متجهمة كأغلب الجزائر فى جنوب البحر الأحمر . أما قرية «بريم» فهى أكواخ أوزرايب آدمية قرب الشاطىء ، وبضعة « بنجالوات» فى أعلى الموقع ، تحاول أن تمت إلى الأناقة بأسباب لم تكن ظاهرة لى على الأقل .

أول ما أضع قدمى على الأرض منذ تسعة أيام حين غادرت السفينة شاطىء مصر فى الغردقة . وقد غدت السفينة مسكنى ومحل عملى فى الاسماعلية حيث ركبتها منذ عشرين يوما ، وبقيت كذلك حتى غادرتها فى الأسكندرية بعد تسعة أشهر . ومع ذلك كانت التسعة أيام أصعب وأشد أيام التسعة أشهر .

أحاط بالسفينة «بمبوطية» من الصومال والعرب ، ونشروا

بضاعتهم على ظهر « هورياتهم » : مأكولات محفوظة ، وعلب سجائر انجليزية ، وفانلات وأحذية ، وأسماك وبنطلونات ، وقطع من شعاب مرجانية ، والعظام الفكية لوحوش البحر بأسنانها . وعصى صنعت من سلاسلها الفقرية .

اللغة العربية التي يتكلمها الناس هنا أقرب فهما لى من لغة تونس أو الجزائر على الأخص والصومال قوم يحملون رؤسهم على هامات مرتفعة فى كبرياء كأنهم قياصرة سود اضطروا إلى امتهان حرف وضيعة مثلما حدث فعلا لأمراء روسيا القيصرية .

أما الهنود فعلى خلاف ذلك ، يسيرون منكسى الرؤوس ، ويتقدمون إليك فى حركات كلها ذلة تتقزز منها النفس ، وتزيد فى تقززها ملابسهم . فبينما الصومال يلبسون الجلاليب البيضاء ، ترى الهندى يلبس قميصا أفرنجيا بلا ياقة ، ويترك أذياله طليقة خارج البنطلون أو المئزر ، فتظهر فى جوانبها تلك المثلثات المقطوعة التي تجعل منظر القميص الافرنجى مرسل الأذيال من أسخف وأقبح المناظر .

وقد أضاف صاحب البار الذى دخلنا إليه على هذا اللباس طربوشا بنيا داكنا . أما الطربوش فيدل على أن الرجل غير

هندوسى . أما اللون البنى فلم أفهمه حتى سالت الرجل عن ديانته وعرفت بأنه مجوسى (مس أتباع زرادشت) . فاللون البنى الغامق يميزه عن المسلم ذوى الطربوش الأحمر .

البار مقفر إلا من جماعتنا وجماعات الذباب جاء يشاركنا شرابنا وكان بيرة ساخنة قدمها لنا ذو القميص المرسل . واضطررنا إلى وضع قطع من الثلج فيها فأفسدت طعمها . وقد كنا نحلم أثناء الأيام التسع ، الشاقة فى رطوبتها المرهقة وحرارتها المميتة ، بشوب من البيرة العنبرية المثلجة ، تعلوها ياقة بيضاء كالشهد . وبيرة هذا المجوسى على غراره . لا ياقة لها . ومع ذلك تقبلناها وشربناها ، فشىء أفضل من لاشىء ، وهذه بريم الموحشة ظهرت لنا فى ذلك المساء كأنها جنة الميعاد .

كل شىء نسبى ولاريب ! بعض الناس إذا قال هذه الجملة حاول أن يفهمنا أنه تتلمذ على أينشتين ، وأنه واحد من عشرة على الكرة الأرضية فهموا نظريته . نصيحتى لإخوانه أن يشجعوه على اعتقاده ، فهذا ضرب من الإحسان لا يكلفنا كثيرا . أنا فى هذا نوع من روكفلر .

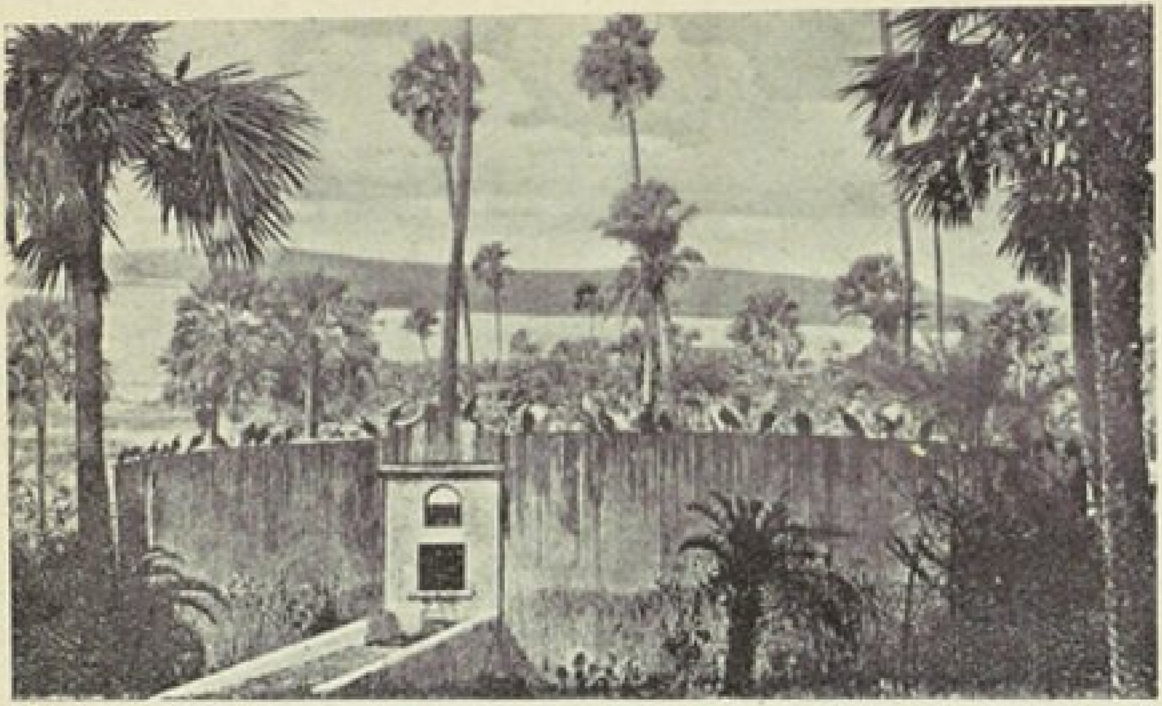
كل شىء نسبى ولاريب ، فلو أنى رأيت قاعة البلياردو

بالكلوب البريطانى هنا فى ظروف أخرى لضحكت من براءة الصور التى تزين الجدران : رجل أصابه دوار البحر أثناء مغازلته فتاة . سيدة تلبس مودة ١٩٠٠ يحتضنها كولونيل على المعاش أصلع الرأس . مناظر غزل ربما بدت جريئة فى وقتها ولكنها تبدو لنا الآن بريئة إلى درجة يسخر منها المراهقون

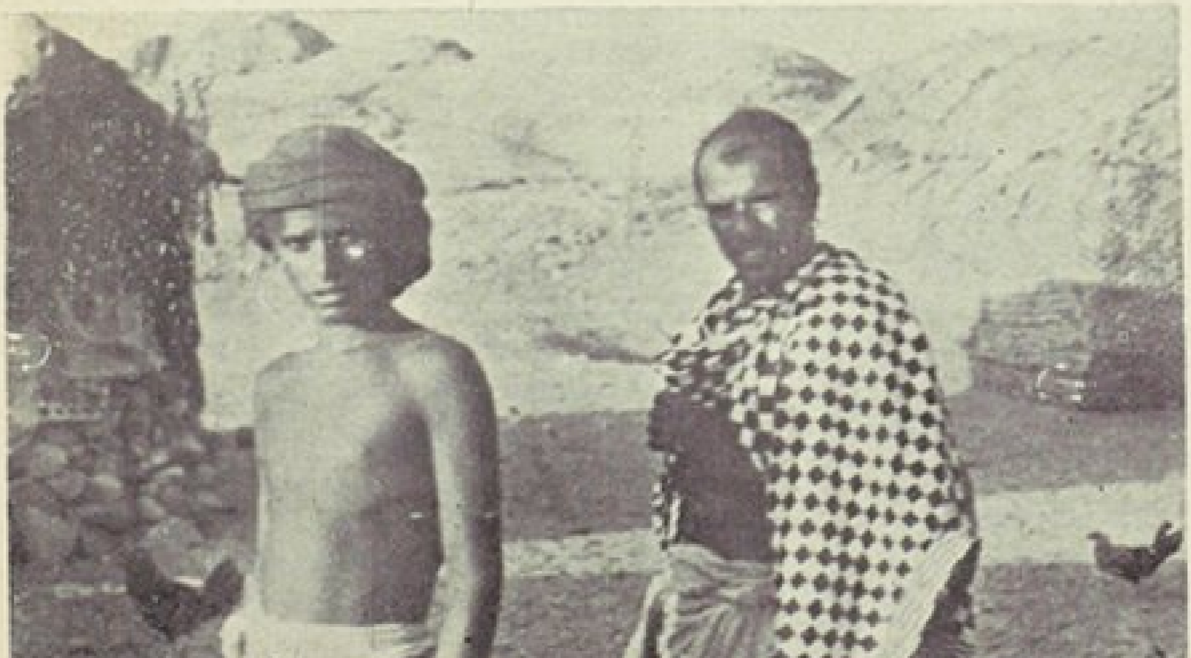
ونحن هنا فى كلوب انجليزى . أى فى ندوة السرور والمرح البريطانى ، وبيت النكات والبشاشة الموقوفة على الأعضاء For Members Only

ولقد كان لى الشرف الرفيع بزيارة بعض هذه النوادى الانجليزية فى رحلاتى ورأيت أقرب المجتمعات شبهاً بها عندنا هى ... المآتم !

ثم إن عينى وقعت على هذه الصور « الخليعة » لأول مرة وأنا فى ركن من قاعة الكلوب تحول لى كنيسة مؤقتة . فلقد كان الخبر الهام الذى أسر به حاكم الموقع إلى رئيسنا هو أن طيارة عسكرية حملت من عدن قسيسا انجليكانيا ليقيم الصلاة فى النادى البريطانى بيريم ويعود فى اليوم التالى . وقد ألقى الخبر إلى رئيسنا فى لهجة من يقول : إننا نترقب الليلة هجوما عنيفا من بعض القبائل الثائرة .



برج من أبراج السكون — بومباى (أنظر صفحة ١٠٧)



سكان جزائر « خوريا موريا » (أنظر صفحة ١٠٠)

وأخفى الرئيس عنا الخبر حتى الشوب الثالث . ثم أبرقت أساريره وأعلننا به خلال غمام الذباب قائلا :

— هيا بنا يا أولاد ، فقد حانت ساعة الصلاة .

دخلت القاعة واتخذت مقعدى فى الصف الثانى . وجعلت أهمهم وأحنى رأسى مجاملة لإخوانى . ووزعت علينا كتب الترتيل ، وهى ما أستريح له فى هذه الحفلات ، لأنى بعد شطرين من الأنشودة أستطيع أن أشترك فى الغناء مع شىء من النشاز لاخطر منه على متانة الأبنية .

وبينا أنا فى خشوعى إذ لاحت منى التفاتة إلى حائط المكان فوقعت عيناى على تلك الصور الخليعة مودة ١٩٠٠ . ومع أنها خلاعة بريئة باردة إلا أن وقعها فى تلك اللحظة كان كما لو أخرج لنا أستاذ الديانة صورة راقصة تلبس ملابس حواء فى الفردوس .

ولقد تصورت رئيس النادى يفكر فى تجديد زينة المكان فيرفع هذه الصور ليضع بدلها لوحات منتخبة من مجلات «سكس أبيل» و «پارى پليزير» . ماذا يكون موقفى حينئذ فى حفلة الصلاة التى طار لها الأنجليكانى خصيصا من عدن؟

وانتهت الصلاة بالدعاء للملك والأسرة الملكية البريطانية

ثم رفعت المقاعد وعاد الكلوب كلوبا . وقدم لنا الوسكى بالصودا وتسامرنا حتى منتصف الليل مع جميع أفراد الجالية البريطانية فى « پريم » . . . وعددها عشرة !

هذه هى «پريم» إحدى حلقات التموين الهامة فى سلسلة المواصلات الامبرطورية .

ويحكى لك الانجليز ، على سبيل الدعابة وبشىء من الفخر ، كيف احتلها آباؤهم فى حقبة من التاريخ لا أعرفها :

عرف أميرال فرنسى بأهمية هذا الموقع — وكان يعرف باسم «ميون» فى ذلك الوقت — فاتجه بسفينته شطره ، ومر فى طريقه بعدن فدخلها . واحتفى به الحاكم البريطانى فأقام له حفلة ساهرة . وفيها انفك عقال الألسن ، وعرف الحاكم بهوية الضابط الفرنسى ، فأرسل أوامره سرا إلى رجاله ليسافروا حالا ويحتلوا الموقع .

ولما أن وصل الأميرال الفرنسى إلى «پريم» بعد أن ودعه حاكم عدن وداعا شائقا . . وجد «اليونيون جاك» يرفرف فوق الراية السوداء !

قال السير تشارلس ناپير — الرجل الذى كسب مقاطعة

السند لبريطانيا وضمها إلى إمبراطورية الهند ، وكان أول مندوب سام لها :

« لا حق لنا فى الاستيلاء على السند ، ومع ذلك سوف نستولى عليها مع ما فى هذا من سفالة ولكنها سفالة إنسانية نافعة ومفيدة جدا »

ذهب المعز وسيفه ! وقساوسته الأنجليكان أيضا يا « أليون » !

خوريا موريا

أكتب هذه الكلمات وقد انقضى بعض زمن على زيارتى جزر «خوريا موريا»، ولا أكاد أصدق ناظرى. وكأنى ببصيرتى تتجاوز حقوقها وتطغى على الرؤية المادية. بمجموعة من الجزر على مقربة من شاطىء حضرموت. المسكون منها واحدة هى جزيرة «الحلانية». بمجموع سكانها نساء ورجالا لا يتعدى منصر «على بابا». يعيشون فى بضع عشرة كوخا من حجارة رص بعضها فوق بعض بغير خرسانة، وغطيت سطوحها بأعشاب البحر المجففة. لا زرع ولا ضرع. عين ماء آسن لا ثانى لها تروى ظمأ عرب الحلانية. وبضعة حجارة تخيط مصلاهم وأخرى تدل على موتاهم. لاهم فى طريق قوافل أو بواخر، ولا هم مستطيعون التجوال فى «هورياتهم» خارج الجونات المحمية حيث يصيدون السمك بالحراب. بينهم وبين العمار — وأى عمار أفضل منه الخراب! — سفر

أيام وليـــال تقل وتـكثر تبعا للريح تملأ شراع الملاحين الغرباء يمرون بأعراب «الحلانية» فيقايضونهم على أسماكهم الجافة بخبز وأرز.

دخلنا ذات عصر بين جزر «خوريا موريا» وألقينا مرسانا أمام «الحلانية». وكنت أرقب الشاطىء بمنظارى فرأيت راية حمراء وقف جوارها رجل. وركبنا اللنش لننزل بأرض الجزيرة. ولم تكن الراية سوى شال عمامة شيخ «الحلانية» نشره فوق عكازه. واجتمع حوله بضعة أفراد حفاة نصف عراة واسعى المحاجر هابطى الوجنات، تبرق عيونهم جوعا. كانوا رجال حكومة «الحلانية». فهذا الكبير الرأس المقطوع الأذن هو وزير الحربية ولا ريب، فهو قلق يكشر عن أنيابه بلا سبب واضح. أما هذا الربعة الحديد البصر يحمل حربة الصيد فلعله وزير الاقتصاد. ويظهر أن الشيخ يجمع إلى رئاسة الحكومة وزارة الأديان والصحة والمعارف والخارجية

وقد اجتمعت حكومة «الحلانية» فى أصيل هذا اليوم على شاطئ ثغرها المنيف لمفاوضة هامة مع قبطان سفينتنا موضوعها «رغيف عيش نتعشى به!»، وقمت أنا بمهمة الترجمة بين شيخ العرب وبين القومندان الاسكتلندى. ولعل الذكاء المصرى

— وهو الذى اعتدنا أن نصفه بالمشهود دون أن نوضح بصراحة أننا نشهد به لأنفسنا — كان عونى على أعمال الترجمة أكثر من لغتى العربية . فهذا الشيخ — أو هـذا الرئيس حكومة — يتكلم العربية بلهجة قحطانية أو حميرية أو حضرمية . ولما كنت ضعيفا نوعا فى فهم اللهجات — وهذا برغم معرفتى المشهودة باللغة العربية ! — فقد اعتمدت على نظرى أكثر من سمعى فى فهم ما يقوله شيخ « الحلانية » . ويقينا كان يطلب منا رغيف عيش يتعشى به ، فالحركات التى تصاحب أشباه قول « عشانا عليك يارب » هى نوع من « إسپيرانتو » أبكم سهل على مهمة توصيل رغبات الشيخ إلى القومندان . واتفقنا على أن نزور مملكته أولا ثم نعود به إلى سفينتنا لنعطيه مما أعطانا الله ، وهو أقل من القليل فى ماخرة العباب المسماة ... التى تشارك المعيدى فى صفته المشهورة .

أما وقد وصفت المملكة ووزراء المملكة ، فلا أرى بى حاجة إلى وصف بقية الأربعين نفسا الذين يتكون منهم شعب « الحلانية » سوى أن النساء محجبات مقنعات . وهى حالة تقر بها أعين أهل التقاليد عندنا ، أو هى تثير أشجانهم إذ

تذكرهم بعهود مصر السعيدة حين كانت حالة نسائنا على غرار حالة نساء «الحلانية» من الرقى التقليدى. ولقد رغبت رغبة صادقة أن يكون أنصار تقاليدنا المجيدة معى فى جزيرة «الحلانية». فهى فرصة لى لا يجود الزمان بمثلها إذا استطعت أن أحشد جموعهم فى هذه الجزيرة القاحلة ليقيموا فيها بلا رجعة، كما فعل الأتراك بحيوانات معروفة ضاقت بها شوارع استانبول فحملوها إلى جزيرة غير مسكونة !

مضى على آخر سفينة وقفت بجزيرتهم خمسون يوما. وقد فرغ خبزهم وأرزهم فهم لا يأكلون منذ أسبوعين سوى السمك المشوى. وإذا قدر لهم أن ينضب معين بئرهم الوحيد فهم واجدون فى رحمة الله الواسعة وجنات نعيمه، ما يعوضهم خيرا عن دنيا «الحلانية» القفرة المرذولة. كما وجد قبلهم سكان جزيرة «السوداء» من جزرهم حين ماتوا عطشا فى حقبة من أحقاب تاريخهم.

قلت إنى وأنا أكتب هذا تركت جزر «خوريا موريا» ورائى ولا أكاد أصدق ناظرى وكأن بصيرتى تطغى على رؤيتى المادية للجزيرة. فالحلانية وسكانها الأربعون تركوا فى ذاكرتى ما يتركه الحلم المفزع. لأنى كلما استعرضت ذكراهم

فى نفسى خيل إلى أن عين المـاء الوحيدة غاضت ولم يبق من سكان « الحلانية » سوى أربعين هيكلا عظميا مبعثرة على الشاطىء الرملى ، حول راية حمراء هى عمامة الشيخ كان قد نشرها تستجدى الأفق سفينة عابرة .

وهو إحساس شبيه بهذا يتولانى كلما ذكرت زيارتى لجزيرة « سان » أمام ساحل فرنسا الشمالى الغربى . فقد رأيت هناك جزيرة منخفضة يعيش بضعة آلاف من أهلها تحت رحمة موجة مدية تجترفهم وتترك جزيرتهم لا أثرا ولا عينا .

وهناك إحساس ضيق يتولانى غير مسبب عن هذا الفزع الخيـالى . وهو ناشىء عن عدم توصلى إلى فهم الدافع لهذه البشرية أن تصر على العيش تحت سيف « داموقليس » . تلك القرى يحتضنها « سترومبولى » و « كاراكاتوا » ، وهى آمنة إلى ضمة البركان الغادرة بعد أن عرفت بأمر تدميره المرة بعد المرة ، لمـاذا تعود إلى الإنشاء والبناء حيث فغرت الأرض فاها وصبت البراكين حممها ، وأطلق الأقيانوس طوفانه ؟ فلا أحير جوابا . ثم تدق كلمة « الحياة » على باب فهمى تستأذننى أن تكون جوابا على سؤالى فلا آذن لها . وكيف تكون الحيـاة وقوة الحياة قصيرة النظر إلى حد أن تورق فى

ميدان الموت الدورى ؟ ثم يتراجع الانسان العاقل أمام هذا الخاطر : الحياة قوة شاملة جامعة . وما العقل إلا من بعض مظاهرها . فهى ليست مضطرة إلى التفكير ، وإنما هى مجبورة على أن تحتل فراغ الموت . وأكثر المواضع احتياجا لها بالذات هى المواضع التى يتنازعها الفناء والعدم .

إلا أنه وقد نفسر عودة الإناسى إلى «سان فرنسيسكو» و«مسينا» و«نابولى» و«جواتيمالا» بما يجدونه فى هذه البقاع من أسباب الثروة ، وهم فى ذلك مدفوعون بذات الجبرية التى كانت الأساس فى إنشاء هذه المدن ، أنى لى أن أفهم سر وجود منصر «على بابا» فوق جزيرة منسية من الآلهة والبشر فى جنوب شبه الجزيرة القاحلة الفقيرة التى اندثرت فى رمالها وكهوفها المخيفة عاد وثمود وغيرهم من العمالقة .

سألت الشيخ عن البلد الذى جاء منه . قال « من مربط على شاطىء شبه الجزيرة » ، وعما إذا كان يسافر من أهله كثير إليها . فأجابنى «أى نعم ، يسافر الشاب ليتزوج منها ويعود بعروسه إلى هنا فتبقى حتى تموت» سألته «ولماذا لاتسافرون جميعا إلى مربط ولا تعودون ؟ » ، وأنا أفكر فى نفسى : ليست مربط باريس ثانية ولا ريب . ولكن عدد أهلها بضعة آلاف

يعيشون فى فقر مدقع . ماذا يضيرهم أن يزيد تعـــدادهم أربعين نفسا ؟

وهنا قد يكون الشيخ أجابنى ولم أفهم . أو أنه هو نفسه لم يفهم فلم يجبنى . وكل ما أذكره هو أنه صوب بصره نحو السماء ، ورفع يده فى حركة مبهمة عريضة ضمت أرجاء السماء والأرض . ماذا قال أو أراد أن يقول ؟ أهى فطرة خاصة لا يستطيع التعبير عنها وإنما أنا المتحذلق أترجمها له هكذا « نحن فلاسفة نحب الفضاء والحرية » ؟

ماذا يقول هذا الشيخ المحب للحرية لو أنه تعلم بعض العلم فطالع الأطالس الجغرافية ؟ لعله آخر من يفكر بأن يرى جزر «خوريا موريا» — وسكانها الأربعين — وقد لونت بلون الامبراطورية التى لا تغرب الشمس عن أملاكها . ليتنى أخبرته بهذه الحقيقة ، وعرفته بأن فى مصر أناسا مهمتهم المراجعات العلمية على صفحات الجرائد ، وأنه ليكفيه أن يرسل خطاباً إلى إحداها فيتلقى وابلا من التصحيحات الجغرافية ، لو أن كل كلمة منها جندى مسلح لاستطاع شيخ «الحلانية» لا أن يصحح لون جزيرته على الخريطة فحسب ، بل أن يحرر جزءا هاما من شعوب الأرض .

أبراج السكون

«بومباى» حاضرة كبرى اجتمع لها من ضروب القبح المعمارى ما يكفى أن يطمس على جمال فلورنسا وروما وباريس وفيينا . ولو أن طيراً أبابيل تكفلت بعملية توزيع بعض مبانى بومباى فحملتها وألقتهـــا على هذه المدن فإنه يمكنك أن تقول يا رحمن يا رحيم على فن العمارة فى حواضر الجمال . طراز عماراتها أثر من آثار العهد «الفيكتورى» امتزج أقبح امتزاج بالفن الإسلامى الهندى . فكانت القباب والأعمدة التى تقذى العين بصلفها وغطرستها ولامنطقيتهـا . وفندق « تاج محل » المعدود من أفخم فنادق العالم هو سيد القباحة . . . . وتاج راسها فى مدينة بومباى عاصمة القبح فى العالم .

وفى بهو الفندق أسرت عينى فتاة مجوسية . والمجوس أتباع «زرادشت» خرجوا من إيران بعد الفتح الاسلامى واستقروا فى بعض مدن الهند . وهم أهل جاه وثراء ، يمتلكون المصانع

والمصارف والمتاجر فى بومباى ، وتتكون منهم أرستقراطية مالية فى بلد المال . بيض الوجوه رقيقو الحاشية ، تمتاز نساؤهم بحسن الذوق فى ملبسهن ، فلا يتخيرن تلك الألوان الفاقعة التى تتكالب هى والأعطار والبخور لتوقعك فى شبه إغماء مزمن طول إقامتك فى الهند . والمجوسيات برغم ارتفاع ثقافتهن احتفظن « بالصارى » (أو الملاءة الهندية) ، وهو عرض من القماش يأتزرن به مبتدئات بالساقين ثم يرتفعن به فى دورات حلزونية حتى ينتهين به إلى ما فوق الخصر ويتناولن طرفه ليكون غطاء للرأس مارا بالكتف والذراع الأيسر ، بينما يبرز الكتف والذراع الأيمن ، فيبدو النحر والصدر خارج صديرية موشاة . كذا كان هندام الغادة المجوسية التى رأيتها تدخل بهو « تاج محل » فى تلك الليلة ، رافعة الرأس ، ممشوقة القد فوق حذاء من الطراز الأوربى عالى الكعب ، سوداء الشعر بضة الأعطاف ، بيضاء الوجه واسعة العينين ، تشرق فيها حدقات عسلية جريئة صريحة غير رجراجة . هذه « المادونا » عابدة النار كانت كفيلة وحدها بأن تنسينى قبح الفن المعمارى فى بومباى ، لو لم تختلط ذكراها فى مخيلتى بعادة الدفن عند المجوس اختلاطا

بسيكوپاتولوچيا يجعل الطبيب النفسانى أولى بقراءة صفحتى هذه من أى شخص آخر . وكلمة الدفن هنا استعملت فى أوسع معانيها إذا كان لها أن تعنى « التصرف بأجساد الموتى »

فالمجوس لا يدفنون موتاهم ولا يحرقونهم .... وإنما يتركونهم للعقبان تنظف عظامهم تنظيفا .

أما كيف اختلطت ذكرى الحسناء المجوسية فى مخيلتى بعادة الدفن عند أتباع «زرادشت» فذلك عائد الى أننى ، كسائح من السائحين ، ارتقيت ذروة تل « ملابار » وسط الرياض الباسمة لأرى « أبراج السكون » تتوج أعلى موضع فى بومباى . والكتاب الدليل يوصينى بهذه النزهة عند الأصيل لأتمتع بـ « پانوراما » المدينة ، ولأنه الوقت الذى ينقل فيه المجوس موتاهم إلى « أبراج السكون » .

وبعد الصعوبات المعتادة عند باب المدافن — وعقدتها فى جميع بقاع الأرض ليس لها سوى حل واحد ، هو قطعة من معدن ثمين أو رخيص نقش عليها وجه ملك أو رمز سلطان — استطعت أن أدخل فى حرم « أبراج السكون » ، لا فى الأبراج ذاتها حيث لا يسمح بدخول إنسان سوى الحانوتية . وقادنى واحد من سدنة « معبد النار » إلى بهو أقيم فى جانب منه

نموذج مصغر للأبراج .

— يدخل حاملو الجسدمن هذا الباب . أما أهل الميت فلا يلمسون فقيدهم خشية الدنس ، ولا هم يجتازون باب البرج إلى داخله . ويقفل حملة الجثمان الباب خلفهم ، ويتجهون نحو واحد من هذه التوابيت المحفورة .

— لست أرى توابيت .

— ألا ترى هذه الصفوف الثلاثةمن حفرات تحيط البئر المستدير وسط البرج ؟ هنا يوضع الجثمان . فإذا كان لرجل وضع فى الصف الأول من ناحية السور ، وإذا كان لامرأة وضع فى الصف المتوسط ، وإذا كان طفلا وضع فى صف الحفر الصغيرة التى تحيط البئر المتوسط . وبعد أن يرفع الحمالون الكفن الأبيض عن الجسد العارى يخرجون من حيث جاءوا ويوصدون وراءهم الباب الحديدى . وهنا تنقض العقبان من فوق أسوار البرج ومن فوق الأغصان . ويتولى أسرعها العيون فيفقأها ، والمحاجر والخدود فيفرغها ، بينما تشتغل العقبان الأخرى بتجريد بقية اللحم عن العظم . وفى وقت يتراوح بين ربع ونصف ساعة — حسب شهية الطيور وتبعا للإيراد اليومى — يعود العقبان إلى الأسوار والأغصان

تاركين هيكلا نظيفا . وتعمل الشمس والهواء والأمطار عملها فى الهياكل المكدسة طول العام فتفتتها وتجرفها إلى البئر الوسطى حيث يحيلها الزمن ترابا . أما الماء فينصرف من أربع قنوات تخرج من قاع البئر فى الجهات الأربع . ويمر فيها خلال مرشحات من الفحم البلدى والرمال الناعمة .

— لست أجد لهذه المرشحات فائدة تذكر بعــــد أن قامت الطيور الجارحة بمهمتها خير قيام .... من الوجهة الصحية

— فى ديننا أن الجسد هو دنس « أحريمان » عنصر الشر أما الروح فهى العنصر الطاهر ارتفع عن الجسد ليتصل بـ « أرموزد » . وطريقة التصرف بالموتى عندنا – إلى أنها تقوم على أدق قواعد الصحة العامة — ترمى إلى تطهير أمنا الأرض من اللوثة التى تحل بها لو أن قطرة من الماء الذى غسل الهياكل العظمية تصرف إليها دون ترشيح .

وخرجنا إلى الحدائق الخلابة التى تتوج هامة تل « ملابار » فأشار دليلى إلى برج منعزل وقال :

— هنا توضع أجساد المنتحرين

ولكن بصرى كان زائغا بين أغصان أشجار اللبخ والجميز

و«البنيان» والجهنمية من ناحية ، وبين أسوار الأبراج من ناحية أخرى . فلم أنس أنى التقيت حين قدومى بأهل الموتى يتشحون بلباسهم الأبيض الناصع ، وعلى رؤوسهم طراطير ذكرتنى بخوذات حرس «فريدريك» البروسى ، إلا أنها أقصر منها كثيراً . وسمعت تصايح العقبان وهى تنقض من كل صوب على الفضاء الواقع فوق الأسوار لتختفى وراء هذه ثم رأيتها تعود إلى مستكنها فوق الأشجار أو تحلق لحظة لتحط فوق الأسوار متثاقلة ، وكأنها ضيوف الوليمة يخرجون من قاعة المائدة فى طلاب المقاعد الوثيرة والقهوة والسيجار. ولمحت رجلا نائما تحت شجرة فسألت قلقا :

— أتطمئن إلى نوم هذا الرجل هنا بين سمع هذه العقبان وبصرها ؟

— لا خوف عليه .

— كيف لا خوف عليه ؟ وإذا أخطأت التقدير فحسبته من نوع الرجل الذى تغذت به توا ؟

— هذه الجوارح أيها السيد لا تخطىء بين الجيفة والإنسان الحى . ثم أرجوك أن تلاحظ بأن الميت الذى ترى أهله هناك لم يكن رجلا بل امرأة .

— لعلك عرفت هذا من السرعة التى عادت بها الطيور إلى أسوارها وأشجارها ؟

— أنت واسع الخيال أيها السيد . ولقد أخبرتك بأن الوقت الذى تستغرقه فى « عملها » يتوقف على شهية الطيور فى الغالب .

— حسبت الطيور الجارحة على شىء من « الجالانترى »

فقال دليلى وهو لا يحاول إخفاء تأففه من نكتتى الباردة التى لا موضع لها :

— إنها ياسيدى جنازة فتاة من أجمل فتيات بومباى ، ابنة المستر « خواديشاه » المالى الكبير ، ماتت فى ريعان الصبا

ردنى دليلى إلى الجد بقسوة لم يكن ليشك فى أثرها ، فقد تجهمت أساريرى لا اتباعا لقواعد اللياقة أو احتراما للموت ، بل لهذا التفصيل فى الخبر . ومهما حصنت قلبى بالفلسفة والتشكك ، وأيا كان فعل السنين فى إحساسى ، فسأظل حتى الشيخوخة المتقدمة ضعيف الأعصاب أمام حادثين : امرأة جميلة أو غير جميلة ، شابة أو غير شابة ، تبكى بكاء هادئا ، مخلصة فى بكائها . وموت الشابة الجميلة فى بتولتها

ولا أذكر جيدا إذا كنت رأيت المجوسية الحسناء

فى بهو « تاج محل » مساء ذلك اليوم بالذات أو مساء اليوم التالى. وقد لبثت أتطلع إليها طول السهرة بلا تحفظ مأخوذا بجمالها وحسن هندامها ، وكانت تلبس إزاراً سماوى اللون موشى الأطراف بالذهب فوق شريط أسود. ولكن صفتين بارزتين تملكتا على حواسى فى ذلك المساء ، وعوضتانى خيرا عن منظر بنات «أليبون» العجاف ، اللائى كن يملأن بهو الفندق (لماذا أفكر بالبسكليت كلما رأيت انجليزية قبيحة ؟): القوام الأهيف ، والرأس المرفوع كأنه ملك فوق عرشه .

وإذ أثقلت ذات مرة بأكلة هندية ، ولم أشفق على نفسى بما التهمته من توابل (يظهر أن الهنود يروضون أجسامهم على النار مقدما !) أصبت بتخمة جعلتنى أقضى ليلة تعرف عندى باسم « ليلة الكوابيس » لكثرة ما رأيت فيها من «بغلات العشر» وذوى الأرجل المسلوخة والعيون المشقوقة بالنكوسى . ولكن كابوسا واحدا ضرب مقاييس الفزع الذى قد تثيره كل هذه البعابيع . فقد رأيت كأنى أرقى تل «ملابار» فى أصيل يوم ، وأعاد الحلم فى ذهنى بعض أدوار زيارتى المادية لأبراج السكون بدقه جعلته كالحقيقة . ثم رأيتنى أشيع نعشا مجوسيا وسط رجال متشحين بالبياض وعلى رءوسهم

طراطير ذكرتني بخوذات «فردريك» البروسي . وأخرج حمالة النعش الجثمان فى كفنه الأبيض . وفتحوا باب البرج . وتنحى أهل المائتة — ألقى الحلم فى روعى عن طريق غير جلى بأن الميت أنثى — ولكنى واصلت السير حتى دخلت البرج مع الحمالة ورأيتهم يضعون الجثمان فى حفرة من حفرات الصف الثانى صف الاناث ! — ويجردونه من كفنه . . . وإذا بها ذات الوجه الصبوح والقد الممشوق ، الغادة التى استأسرت بلبي ليلة « تاج محل » . هى بذاتها وإن كانت مقفلة العينين كالنائمة ولكن صفتين تملكتا على حواسى فى ذلك الحلم : القوام الأهيف ، والرأس المرفوع كأنه ملك فوق عرشه !

وهنا أذكر أنى صرخت وارتميت مغشيا على . والغريب فى الأحلام ازدواج الشخصية والحواس . فقد كنت عارفا تمــام المعرفة أننى مغمى على ، وكأن هناك عينين وبصيرة تجردت عنى وجعلت تنظر إلى على هذا الحال كأنى شخص آخر . وأذكر وأنا فاقد الوعى أنى نسيت فتاتى ولم أعد أفكر إلا بالعقبان الكاسرة وبأنهــا سوف تنقض علىّ من بين الأشجار وأعالى السور تحسبنى « إيرادا » . ومع إدراكى لخطورة الوضع الذى أنا فيه، ومحاولتى النهوض قبل أن تخطىء

العقبان مخبرى، فإن قوة خارقة، كـأنها بضع صخور وضعت على صدرى، كانت تحول بينى وبين القيام .

وصحوت تلك الليلة أتصبب عرقا . وكان البحر مضطربا بعض الاضطراب، والأموج تصدم نافذتى الزجاجية المستديرة فى شىء من العنف، حتى لقد رأيت أن أؤمن على قفلها بذلك الغطاء المعدنى المسمى بالانجليزية « الأضواء المائتة »

ولم أستطع منذ ليلة « الكوابيس » أن أفصل فى مخيلتى غادة « تاج محل» عن تل «ملابار» و « أبراج السكون »

جحاج امشقارام

هل تذكر حديث « مية المحياة » ؟ فقد امحت من ذكريات طفولتي حكاية عين الماء التي يصل إليها « الشاطر حسن » بعد أهوال ليملأ منها جرته ويختمها ويعود بها إلى « ست الحسن والجمال » . ونسيت فوائد تلك المياه وشكل الجرة . ولكن بغرفتي آنيتين من نحاس كأنهما بقيتا لي من « الحدوتة » . وإذا كان الأمر كذلك فهي أول مرة فيما أعرف تقص جدة على حفيدها شتى « الحواديت » ولا تعتذر إليـــه في آخرها بالجملة التقليدية « وأديني كنت عندهم وجيت . ولو ماكانتش طاقيتي مخروقة ، لكنت جبت لك فيها فتة ومسلوقة » . بل هي تلقى إلى حجره بآنية من نحاس وتقول له « آدي الجرة اللي ملاها الشاطر حسن من مية المحياة ، جبتها لك أمارة ، يابن الأمارة » .

أقول لك إن اثنتين من هاته الأواني النحاسية بغرفتي ، وقد وضعتهما على المكتب أمامي وأنا أكتب هذه الصفحة .

كلا لم يعد بهما نقطة من « مية المحياة » الآن ، ففى الواحدة كما ترى بعض الماء القذر ، وأعقاب سجائر يوم عمل كامل

كعذارى فى الماء أظهرن بضا
سابحات به وأخفين بضا

وفى الثانية وردة أكثر احمراراً من وجنتيك يا جميلتى !

منقوش على جوانب الأولى ثلاثة طواويس أدارت رءوسها لتنظف الريش حول منابت رقابها ، أما الثانية فهى عطل إلا من خطوط متوازية فى وسط جسمها المتنفخ كالقرعة ، وحول رقبتها الصاعدة نحو فوهتها كزهرة اللوتس .

لو أن لهاتين الآنيتين روحا ولسانا فصيحا لتحدثتا إلى كل يوم عن طرائق الأقدار بأكثر مما يمكن أن تتحدث به المسلة المصرية فى ميدان «الكونكورد» .

فقد امتلأتا ذات مرة « بمية المحياة » . كلا لست ساخراً ! أرجو أن تصدقنى إذا علمت بأن كلا منهما تمثل الهدية المقدسة التى يحملها الهندوسى من «بنارس» على ضفاف « الكنج » فى شمال الهند ، حتى « راميشفارام » فى الطرف الجنوبى لتلك البلاد التى تكاد تعادل قارة من القارات بترامى أطرافها وتعدد أجناسها ودياناتها وألسنتها .

طريق الحجيج الأكبر الذى يمر بالمعابد الكبرى فى «بنارس» و«پورى» و«تانچور» و «مادورا» و «راميشفارام» وقد أكون نسيت معبداً أو معبدين .

وإذا كان الحاج يقضى فى العصور الحديثة بضعة أيام فى القطارات حتى ليبلغ غايته فى «راميشفارام» ، فكم كان يقضى قبل مد السكك الحديدية ؟ كان الهندوسى يقتنى الجرة النحاسية ويترعها من مياه «الكنج» المقدس عند «بنارس» بعد أن يكون ودع أهله . فقد يندر أن يعود إليهم من حجيجه الطويل ، وإنما يعود ابنه الأصغر رجلا حنكته التجارب ، وسمت نفسه فى جيرة الآلهة . أو هو أيضا لا يعود إذا ما مسته القداسة فاستحال «يوجى» يتنقل من القرية إلى القرية عارى الجسد طويل الشعر والأظافر . يعيش بالقليل الذى يجود به عليه الخيرون ، ويقضى الأشهر صواما متعبدا فى كهوف الجبال أو منعطفات الطرق أو أبواب المعابد ، أنيس الأوابد والزواحف ، ومضيفة القمل والصئبان والهوام .

هذا إذا كانت الكوليرا وغيرها من الأوبئة لا تحصده ضمن من تحصد ، أو «الكوبرا» لا تصرعه فى دقائق معدودة ، أو أنه لا يرتمى تحت عجلات الإله «ياجانات» فتسحقه سحقا

وتتلاشى روحه ، دون هوادة وبلا تناسخ ، فى تلافيف «النيرڤانا» الموعودة

أما اليوم فقد تكفى الحاج أيام معدودات أو أسابيع ، يحمل أثناءها جرته وقد أحكم ختمها بالقصدير حتى يصل إلى «راميشڤارام» ، ويتقدم داخل الهيكل فى قدس الأقداس ، وينبطح على وجهه يتمتم تعاويذه وصلواته . ثم يقوم إلى الصنم فيفض ختم الجرة النحاسية وينضحه بمائها المقدس .

وماذا يفعل البراهمة بآلاف الآلاف من هذه الأوانى النحاسية أفضل من بيعها لأمثالى من السائحين ؟ فأستعملها منفضة للسجائر أو زهرية ، وأضعها على مكتبى أستوحيها فصلا من كتاب رحلتى الهندية .

اشتريتهما نحاساً بالرطل ، وقد احتفظت فوهتاهما ببقايا القصدير ، وسدت يد الحاج ثقبا فى رقبة إحداهما بالرصاص الذى لا يزال أمامى أثراً من آثار الورع وتقديس الماء الذى احتوته هذه الآنية .

لمن الصنم فى معبد «راميشڤارام» بطرف الهند الجنوبى ؟ وأنى لى أن أعرف وقدس الأقداس حرام على غير الهندوسى؟ وإذا كنت فى معبد «مادورا» قد استطعت أن أصل حتى

باب الإلهة « مينا كشى » ذات الثلاثة نهود وعيون السمكة ، وألمح فى الظلمة بريق الذهب والنحاس وضياء الشموع ، وأشتم عبق البخور ، فإننى هنا فى معبد « راميشفارام » لا يصرح لى بأكثر من ارتياد معابر المعبد وعرصاته وممراته ، وهى فدادين من الأرض تحيط بها آلاف الأعمدة وآلاف الآلاف من التماثيل القبيحة المفزعة ذات الألوان الصارخة . وتقوم عليها قباب هرمية ناقصة « جوپورام » ذات أربع قواعد ، ترتفع إلى أكثر من عشرين متراً فوق الأرض . يصيبك الدوار وأنت تحاول أن تفحص بعض دماها وصورها وحلياتها وتماثيلها . ولقد عد أحد غلاة الاحصائيين التماثيل الزخرفية والصور الحائطية وغيرها فى معبد « مادورا » فكانت نيفا وثلاثين مليون دمية وصورة .

وإذا كنت قد تمكنت فى « مادورا » من أن أصل حتى «الميضة» الداخلية التى تعادل عشرة أضعاف أكبر حوض سباحة شهدته ، ينحدر إليها الدرج من جوانبها الأربعة فى شكل أرصفة متعاقبة تسعى فوقها إنسانية ملهوفة مرزوءة مقشرة دامية ، ذات بثور ودمامل وجروح ، لتغتسل فى الما وتبلبط فيه وتبقبق وتمخط ، فانه لم يصرح لى فى «راميشفارام»

بالوصول إلى حوض مائه رحمة من سدنة المعبد ومنة ، فمن ذا الذى يرى ميضة المعبد الهندوسى مرة ويرغب أن يجدد التعرف بها و بالمغتسلين فيها ؟

لمن الصنم فى معبد « راميشفارام » بطرف الهند الجنوبى ؟ قيل هو للإله « شـيفا » وقيل بل للبطل « راما » فارس « الرامايانا » ومظهر من تناسخ شيفا . والواقع أن الصنم الأكبر فى قدس أقداس معبد « راميشفارام » ليس لشيفا ولا لقمص من قمصانه . إنما هو لعضو من أعضاء شيفا يعد فى الهند من أقدس أعضاء هذا الإله ، بل هو أقدس مظهر يعبد فيه شيفا ، حتى لقد عرف عن هذا الإله أن قال فيه « هو من شيفا ، وشيفا منه . من عبده فقد عبدنى » .

ويحى ! كأنى أنحدر فى وصفى على درج « ميضة » المعبد لأصل إلى تلك المياه الخضراء الآسنة حيث يغتسل من يتقزز البشر لمرآهم . مالى وقدس الأقداس ، ومالى وشيفا ؟ أو ما علمت بأن بعض التماثيل التى تزين فرنتونات وجوپورات معابد الهندوس مما قد يندى لمرآه جبين الفتيات ؟ أو ما ذكرت احمرار وجنات « الكويكر » الانجليزى وهو يحدثنى بما تصوره المناظر التى على أبواب المعابد ، ويصف لى حياة « الديفاداسى »

راقصات المعبد الموهوبات لصنم الإله أو .... لسدنته الأحياء بالأولى ؟

ويحى إذا زل بى القلم فحكيت كيف دخل مجمع الآلهة على شيفا فى خدر زوجته الجميلة بارفاتى ! ويحى إذا وصفت كيف صعر لهم خده وصعروا له خدهم وخرجوا غاضبين ، فقاه بما سبقت الإشارة إليه وكان الأصل فى تلك العبادة الشائعة فى الهند ، والتى ينتسب إليها أقوى المذاهب الهندوسية ، وهو المعروف بمذهب « اللنجاميين » .

ويحى إذا أطبقت على هذه الأعمدة ، ونهشتنى أنياب الـ « يالى » بعابع المعبد ونزل «جانيشا» الإله ذو رأس الفيل عن قاعدته فلف على خرطومه . قد لا أخاف الموت بقدر ما أخاف قذارة الزيت الذى نضح به الإله الفيل فى هذا الصباح ، وعفونة الماء الذى يغتسل فيه الهندوسى تقرباً من الآلهة .

وقد يكفى أن أتذكر جولاتى فى معابد بومباى وكراتشى ومدراس ومادورا وراميشفارام لتتحبس أنفاسى هلعا ، وكأن صخرة « سيسيفوس » قد انحدرت من أعلى الجبل لتستقر على صدرى .

ويحى من تلك النفوس الشقية ، سجينة حلقة التناسخ تستغفر ذنوباً جنتها أجساد آلاف الإناسى والحيوان التى تقمصت فيها .

فهذا رجل دخلت المعبد فرأيته منبطحاً بطوله فوق الأرض الموحلة ، أمام الثور « ناندى » ، لا حراك به كأنه الجثة الهامدة . وعدت بعد ساعة من طوافى فرأيته فى نفس موضعه لا ينبس ولا يتحرك . ومن يدرى كم يبقى ممنطرا يستجدى رحمة « ناندى » بواب شيفا وزوجته بارفانى ؟

وهذا برهمى غطى نفسه من أم رأسه حتى أخمص قدميه برماد نار اشتعلت تحت أقدام « جانيشا » أو « كالى » أو المخيفة « دورجا » .

ويحى ماذا غرر بى فجئت أجوس خلال هذه الإنسانية الشقية تسعى حليقة الرأس إلا من ذؤابة شعر تتدلى ، وتأتزر بأقمشة بيضاء مشكوك فى بياضها ، وقد نقشت على جبينها رمز الإله شيفا بالرماد أو بأصباغ حمراء وصفراء .

قليلا من النور أيها السادة ! هذا ما قاله « جوته » عند احتضاره أقوله أنا أيضاً لمجرد أن زل بى القلم وأنا أكتب عن رحلتى من جزيرة « كروشادى » إلى معبد « راميشفارام »

فى جنوب الهند .

وهذا النور يبدو لى فجأة فى فقرة رائعة من «الأوذيسية» ذكرتنى بها عبادة رمز من رموز شيفا . وحكاية شيفا حينما دخل عليه الآلهة فى خدر زوجته .

ذلك حين يعلم « هيفستوس » إله النار الأعرج الصناع بما أصابه فى زوجته « أفروديت » من إله الحرب « آريس » . فينصب حبائله وشباكه حول خدر زوجته ربة العشق والجمال . ويجمع آلهة الأولمب يشهدهم على خطيئتها « أما الإلهات فيلزمن خدورهن احتشاما » .

يتضاحك الآلهـــة — وهكذا أراد القدر للبشرية أن يضحك الرجال من الرجال حين تخونهم زوجاتهم — من بلية « هيفستوس » . ويسخر بعضهم من موقف إله الحرب فى مخدع إلهة الحب . ولكن « أبوللون » الجميـل ، أبوللون رب القوس والقيثار والشعر ، يميل على أذن « هرميس » ويسر إليه :

— لتتمنى على القدر أن يمددك فى أحضان فينوس حتى ولو دفعت الثمن غالياً هذه الأحبولات تشد وثاقك ، وسخرية الآلهة بزميلنا آريس .

فيومى، إليه هرميس قائلا :

— لأكونن من أسعد الأرباب حتى لو وقعت فى أضعاف هذه الأحابيل ، وفاجأنى فى أحضان ڤينوس كافة الآلهة والإلهات !

من قصة خدر شيڤا وپارڤاتى خرجت عبادة تناسلية مرذولة .

ومن خدر أفروديت وعشيقها خرجت عبادة الجمال للجمال

من خدر شيڤا خرجت العبودية والذلة .

ومن خدر أفروديت خرج الفكر الحر والإحساس الرفيع المطلق .

قليلا من النور أيها السادة ! فلم أك أقصد إلا وصف حجيجى الذى عدت منه بآنيتين من نحاس احتوتا مياه الكنج المقدس ذات مرة ، واستحالتا فى غرفتى : الواحدة إلى زهرية ، والأخرى إلى منفضة سجائر .

بت ليلى على خوان معمل أحياء مائية بجزيرة « كروشادى » ، وفى معدتى أكلة برهمانية قدمها لنا موظف بالمعمل ، ولم يتنازل أن يشاطرنا الأكل لأن مرتبته البرهمانية العليا لا تسمح له بمؤاكلة غير البراهمة حتى ولو نزلوا ضيوفا عليه . هى وجبة

نباتية فرض فيها أن تعين على الورع والعبادة ، ولم أر أكلة أشد منها قدرة على إلهاب الحواس بما بث فيها من شطة وفلفل وبهار .

بت ليلى وأنا فزع من الحشرات والزواحف ، أستعرض فى ذاكرتى جميع ما سمعت أو قرأت أو رأيت من ذوات الأربعة والأربعين والعقارب ، ومن ثعابين تقضم ، وحيات تلقم العيون من محاجرها ، وصلال ذات فحيح وقعقعة .

وفى الصباح عبرت ذراع البحر بين الجزيرة وأرض الهند فى قارب يغترف الموج اغترافاً . وفى المحطة أخبرنا بأن القطار الذى أتينا لأجله لا وجود له إلا فى مخيلة البرهمى الذى حدثنا بأمره . وقال صاحبى الهندى : دعك وزيارة راميشفارام .

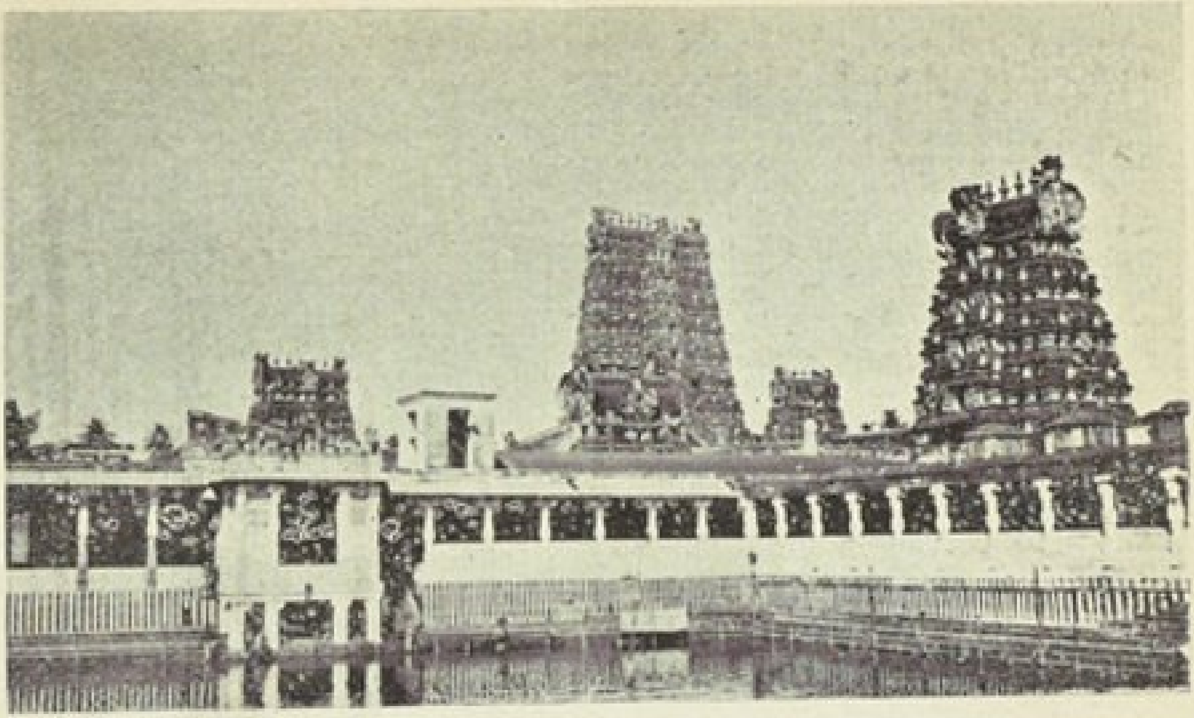
فأجبته فى عناد : أيكون معبد راميشفارام آخر سلسلة الحجيج الهندى على قيد سبعة أميال من هذه المحطة ولا أزوره ؟ إنك لا تعرفنى . لأسيرن إليه على قدمى إذا اقتضى الأمر !

واستأجرنا « باندى » أى عربة هندية تجرها الثيران — لم تكن عربة فيكتوريا أو أى نوع من الخناطير . ولم تكن

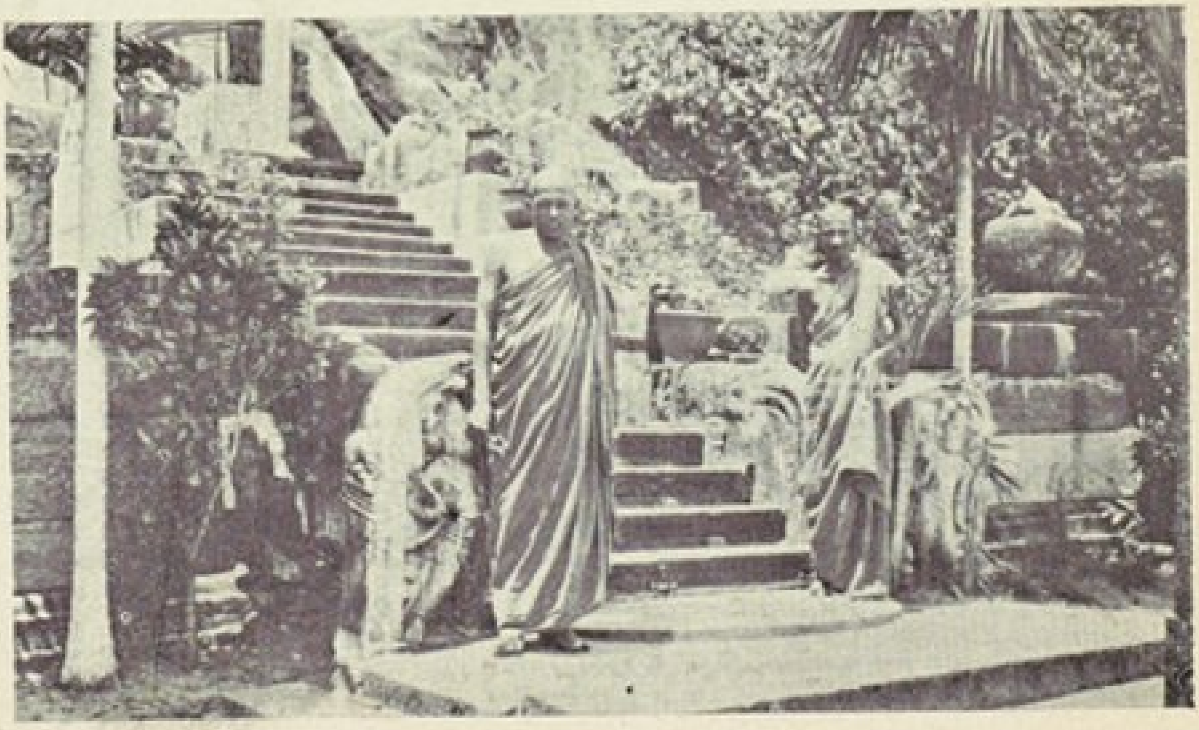
حتى عربة كارو . إنما هى هيكل عربة خرج علينا من مقابر العربات يسعى . أنت تعرف ولا ريب عربات الدبش ذات العجلات الكبيرة ، تلك التى ينقضم وسطها فينقلب صندوقها إلى الوراء بدبشه . انزع عنها صندوق الدبش فماذا يبقى ؟ تبقى « الباندى » الأنيقة التى ركبتها وصاحبى الهندى لنحج إلى راميشفارام ، وقد تدلت سيقاننا بين عجلتيها الكبيرتين . وسار السائق يجذب إليه حبالا ألجم بها ثوريه فى خياشيمهما

طريق الحج الأخير إلى راميشڤارام ، فى تلك الأرض الفانية وسط الركام والمعابد المهجورة . بين أشجار «البنيان» والتمرهندى ونخيل «البالمير» ، وتحت أعين أصنام أقيمت على أبواب القرى للآلهة حتى تغدق على الأهلين خيراتها ، وللشياطين حتى تنعم عليهم بالبعد عنهم .

طريق الحج إلى راميشڤارام . تحوطه المضايف أقامها الأغنياء إما لأنفسهم أو وقفاً على فقراء الحجاج يأوون إليها هربا من القيظ الاستوائى ، وراحة من عناء السفر الكعابى ، وهو خير عندى من ركوب هذه « الباندى » وكأنى بها آلة من آلات التعذيب فى القرون الوسطى ، تلك الآلات التى كانت تفصص عظام الأبرياء كما يفصص الثوم ، وتغمز



معبد هندوسى — جنوب الهند (أنظر صفحة ١١٧)



راهبان بباب معبد بوذى — سيلان (أنظر صفحتى ٨١ و ١٨٥)

جوانبهم كتغماز التين .

طريق الحج الأخير إلى راميشفارام ! هذه معابد أعاد الصالحون بناءها . أو أصلحها من قضوا حياتهم يبتزون أموال المساكين ، فاستعاضوا عن إصلاح أنفسهم بإصلاح المعابد المهجورة .

وى ! هذه بعض قبور أولياء المسلمين . جرداء قرعاء مسلوخ عوارضها ، كأنها فى هذه الأرض الهندوسية مخلوقات يتيمة منسية ، تائهة حائرة .

وى ! وهذه صلبان خشبية برصاء كتعاء . مقبرة مسيحية ترمق المقابر الاسلامية بعيون جافة غائرة . وكأنها تقول لها « أى حظ عاثر رمى بك وبى فى أرض لاتعرف الرحمة »

كلا ! ها هو ذا روح القديس « فرانسوا اكزافيه » يرعى حملانه الأحياء والأموات . فهذه كنيسته تلمع جدة وبياضا ، أقامها له أحفاد أتباعه . وهذا هو أسقفها الفرنسى يتقبلنا ببشاشة فى باحتها المتربة . ويقدم لنا « باندى » ملاكى نشد إليها ثورينا بدل الهيكل الخشبى الذى حملنا إليه .

قلت فى مكان آخر « كل شىء نسبى » ، حقـا ! فهذه « الباندى » الملاكى بدت لنا فى تلك الظهيرة المحرقة كأنها أحدث

موديلات الباكار والرولزرويس ، بينما هى لا تتعدى نوعا من التختروان مقوس السقف المصنوع من الحصير . يدخل المرء اليها فيجد جزءا من قاعها هابطا كأنه حوض ماء فارغ فيجلس على حافته ويدلى رجليه فى تجويفه . وقد يمكنه أن يطل أو لا يطل من كوة أقل انفراجاً من كوات عربات السجن . ويقينى أن عربة السجن خير من هذه الباندى الملاكى التى تفضل بها علينا أسقف كنيسة « فرانسوا اكزافيه » .

وبينما نودع القس الطيب الكريم ونتلقى بركته ، وقد ملت أربت على كلب له وسط كلاب سائمة لاهثة غائرة العيون ، دست دون عمد على طرف واحد منها ، فاستدار وعضنى فى ساقى عضة قطعت الجوارب وجرحتنى جرحا طفيفـــا .

وأخذنى السامرى إلى صومعته ليعالج جرحى ، وقد خشيت أن يكون العلاج فى هذه البلاد الروحانية عن طريق التعاويذ والتمائم . ولكن منظر زجاجة اليود ومسحوق البوريك أدخل على نفسى بعض الطمأنينة المؤقتة . فإذا كان الكلب مكلوباً يا أبتاه ؟

— لا تخف يا بنى ، إنى أعرف أغلب هذه الكلاب

السائمة ، فلا تخش مرض الكلب . إنما يغلب على لعابها أن يكون متسمما نتيجة ما تلغ فيه من عفونة .

— شكراً يا أبت ، ورجائى إذا ظهرت على غريمى أعراض الكلب أن ترسل لى تلغرافاً ألخ .

طريق الحج الأخير إلى راميشڤارام ! ولم أر بعد شيئا من كوة التختروان الفخم الذى أكمل على بقية ضلوعى وسلسلتى الفقرية ، حتى نزلنا بباب المعبد الكبير ، نحن حجاج راميشڤارام .

ومع أن صاحبى الهندى قال لى عقب عضة الكلب « بقينى أن إله راميشڤارام لا يريد أن يراك ، فقد استطعت أن أدور فى عرصات معبده ، وأذرع ليواناته ومعابره وممراته . وأكتشف تمثالى « الوفاء الزوجى » ، وأشترى آنية نحاسية أستعملها الآن طقطوقة سجائر ، وآنية أخرى أضع فيها الوردة التى تعطر جو الحجرة حولى .

وخرجت من معبد راميشڤارام وقد قلدنى أحد كهنته عقدا من أزهار الياسمين ، هو التحية التقليدية التى يقدمها الهندى لأقربائه ومعارفه .

ويحك يابن بطوطة!

ويحك يابن بطوطة ، أفسدت علينا نساء «ذيبة المهل» فما كفاك أن تتزوج منهن باليمين وبالشمال . بل عز عليك أن يمشين فى الطرقات عاريات أعالى الجسد الأسمر المشرب بحمرة ، بارزات النهود ، مستديرات الأكتاف ، مبسوطات الصدر والظهر . فرحت تأمرهن بالتستر والحجاب .

«ونساؤها لا يغطين رؤوسهن ، ولا سلطانتهم تغطى رأسها . ويمشطن شعورهن ويجمعنها إلى جهة واحدة . ولا يلبس أكثرهن إلا فوطة واحدة تسترها من السرة إلى أسفل ، وسائر أجسادهن مكشوفة . وكذلك يمشين فى الأسواق وغيرها . ولقد جهدت لما وليت القضاء بها أن أقطع تلك العادة ، وآمرهن باللباس ، فلم أستطع ذلك . فكنت لا تدخل إلى منهن امرأة فى خصومة إلا مستترة الجسد . وما عدا ذلك لم تكن لى عليهن قدرة»

ومع هذا تعترف أيها القاضى الفاضل بأنه كان لك «جوار كسوتهن لباس أهل دهلى يغطى رؤوسهن ، فعابهن ذلك أكثر مما زانهن إذ لم يتعودنه »

وتمضى فى التمدح بصفاتهن : « ولم أر فى الدنيا أحسن معاشرة منهن » . ثم « فقال لى الوزير سرا . . . . فهل لك أن تتزوج بربيبة السلطان ؟ فقلت نعم . فاستدعى القاضى والشهود ، ووقعت الشهادة ، ودفع الوزير الصداق . ورفعت إلى بعد أيام فكانت من خيار النساء . وبلغ من حسن معاشرتها أنها كانت إذا تزوجت عليها تطيبنى وتبخر أثوابى وهى ضاحكة لا يظهر عليها تغير »

ومع ذلك تصر على أن يغطين النصف الأعلى من أجسادهن . كأن الجمال الذى تمتدحه وتتمتع به يمنة ويسرة يجب أن يختبىء عن أعين الناس . فلتستأثر بنسائك وحدهن . مالك وغيرهن ؟ وأى عيب فى الكاعب أن تبدو محاسنها ؟ إنما العيب أن تظهر القباحة فتقذى بها العين ، وتعافها النفس .

ليتك عرفت طرفا من أخبار يونان القديمة أيها القاضى العالم ، وكيف مجدوا وخلدوا الجسد العارى . إذن لأخذت عن أهلها الأمجاد — كما أخذنا — عبادة الجمال فى أحسن صور

الجسم البشرى وأبدع أوضاعه . ولأيقنت — كما أيقنا — أنهم إذا كانوا أورثوا العالم المتمدن تلك الروائع الفنية الخالدة ، فلأن عيونهم تفتحت على أجسام كاملة التناسب ، ولعلمت أيها الشيخ أن أعمدة « البارتنون » وفرونتوناته خرجت من رأس « مينرفا » بقدر ما خرجت من سيقان « فينوس » الملساء ، ووقفة « أبوللون » يرمى بالقوس أو يداعب القيثار .

إن الله جميل يحب الجمال يا مولانا القاضى . وقد دخلت جزائر « ذيبة المهل » فوجدت سكانها « أهل صلاح وديانة وإيمان صحيح ونية صادقة . أكلهم حلال ودعاؤهم مجاب . وإذا رأى الإنسان أحدهم قال الله ربى ومحمد نبى » . مسلمون ومسلمات حسن إسلامهم قبل أن تنزل بهم ، ولم تك نساؤهم تسعين عاريات لرذيلة . فلماذا تشعرهن بالسوأة ، وتلبسهن ذنوبا لم يدركن من أمرها شيئا قبل قدومك ؟

ألم ترعو حين « أمرت مرة بقطع يد سارق بتلك الجزر فغشى على جماعة منهم كانوا بالمجلس » ؟

ثم ألم تر كيف حاولت أن تستبد برأيك فى النساء فلم تستطع لأنك كما تقول « لم يكن لك عليهن قدرة » ؟

ومع ذلك تعود مرارا وتكراراً إلى التمدح بجمالهن وحسن معاشرتهن وتصر على أنك ، جهدت أن تكسو النساء فلم تقدر على ذلك » .

خذلتك نساء « ذيبة المهل » يابن بطوطة . وإنى لأصفق لانتصارهن ، كما أصفق لانتصار غيرهن فى مشارق الأرض ومغاربها ، وفى كل العصور .

ثم كانت لك الغلبة فى النهاية ، ولكن بعد موتك . فلم تعش لتنعم وتفرح بانتصارك .

ولقد زرت الجزر بعدك بستمائة عام ، فوجدت النساء محجبات ، يتوارين خلف الأبواب إذا ما مر بها الغريب ، ويرمقنه بعيونهن الحوراء الحارة من فوق أسوار حدائقهن .

ويحك يابن بطوطة ! أفسدت علينا نساء «ذيبة المهل» .

لمست أقدامى جزائر « المحلديب » كما تعرف الآن وأنا أتحرق شوقاً لمشاهدة الجزر التى قال عنها رحالة طنجة الفذ « وهى إحدى عجائب الدنيا » ، وأمنى النفس بلحظات هى ملك للفن الخالص حين أمتع سائر روحى برؤية الجمال الرائح والغادى فى غير احتشام زائف وخجل متصنع .

نزلت جماعتنا إلى البر ترتلد جزيرة مالى (المهل) التى

بدت لنا كالأحلام . ونحن نراها على امتداد البصر زمردة فى عقد الجزر المرجانية التى تحيط باللاجون . نور هادىء ، وسلام فردوسى ، فيه للنفس راحة بعد عناء ، واطمئنان بعد قلق . وسط ذلك البحر الداخلى المنبسط كصفحة من البلور المخضر فى زرقة ، ترتد عنه أمواج المحيط مزبدة متكسرة فوق أسنة الشعاب الغارقة . ميناء طبيعى وسط الأقيانوس ، تحيط به مجموعة جزر تتخللهـــا فرجات خطيرة ، لا سبيل إلى اجتيازها أو تتحطم السفن فيها تحطيما ، ما عدا المعبر الوحيد الذى لا يسلكه إلا كل ملاح قدير . قال ابن بطوطة « وجزائر ذيبة المهل ، وذيبة على لفظ مؤنث الذيب ، والمهـل (بفتح الميم والهاء) ، نحو ألفى جزيرة . ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب إلا منه . وإذا وصل المركب إلى إحداها فلا بد له من دليل من أهلها يسير به إلى سائر الجزائر . وهى من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التى بإحداها عند الخروج من الأخرى . فإن أخطأت المركب سمتها لم يمكنه دخولها وحملته الريح إلى المعبر أو سيلان »

وقد نسرح فيها البصر ساعة الأصيل ، فلا نمل منظر الشمس

تجمع نضارها من فوق رمال الشاطىء ، وعقيقها وزمردها من تيجان النارجيل ، كالحسناء « نوزيكا » تلم مطارفها وثيابها بعد غسلها على شواطىء « شيريا » تأهباً للرحيل .

نزلت جماعتنا إلى البر ترتاد جزيرة « مالى » . وكان حادثاً هاما قدومنـــا على تلك الجزر التى لا يرتادها السائحون ولا تدخلها بواخر الركاب . لذا سرنا يتبعنا جمع غفير من أهل الجزيرة . وفى أقل من نصف ساعة أتممنا دورتنا فى عاصمة جزائر المحاديب .

طرقات نظيفة ، هى مماشى بساتين أكثر منها شوارع . تحف بها من الجانبين أسوار المساكن صنعت من جذوع القصب وقش النارجيل . ترتفع من خلفها هامات شجرة الخبز وأشجار المنجة واللبان وجوز الهند ، ترسل أغصانها المورقة من ناحية لتلتقى بأغصان الناحية الأخرى ، حتى لنسير تحت سقوف وقباب من ذلك النبت الاستوائى المسرف فى كل شىء ، فى ارتفاعه ، وازدهاره ، واشتباك فروعه ، وكثافة أوراقه ، وثقل عبيره .

وعدنا إلى المرسى ، فاستأذنت أن أبقى ساعة أخرى فى تلك الجنة الأرضية ، أتملى من جمال غريب على كل حواسى ،

لا أظن الحياة تهيىء لى رؤياه أو مثيله مرة أخرى.

ضحك الكوماندرف... وقال: أهى الأشجار أو ما وراء الأسوار تنتزعك منا يا عم حسن؟

وقال القومندان الأسكتلندى: أنحسبك عائداً إلى السفينة قبل العشاء؟

وقال رئيس البعثة الانجليزى: مطاردة الغوانى أيضا يا فوزى؟

وقال من لم ينس هوميروسه: حذار أن تأسرك «كاليپسو» فى كهوفها!

وقال زميلى المصرى: إنت رامى جتتك؟

ولم أجب، بل قفلت راجعاً إلى الجزيرة يحدونى أمل خفى، كانت ضحكات الصحاب فى القارب الذى حملهم إلى السفينة تنذرنى بأنه أمل خائب.

فربما كانت الظلال البنفسجية، وحفيف الأشجار المجهولة، وصفحة سماء لازوردية يغشاها نقاب المساء الشفاف، وعبير الأزهار الغريبة، هى التى أومأت إلى أن أعود. ومن ذا الذى يحدوه المساء السارى فى أعطاف الرياض فلا يجيب؟

ولكن الصوت الذى أهاب بى لم يصدر عن جنة الشعاب المرجانية وحدها. وإنما هو صوت داخلى يرن فى أرجاء أرواحنا إذا اختلجت بنظرات العيون الحوراء ترنو من خلف الأبواب وفوق أسوار منازل «مالى» المليئة بالأسرار، واهتزت بلمحة من شعور فاحمة تزينها عمامة صغيرة كالزهرة ترشقها الحسناء فى فودها، وانتفضت لوسوسة حلى تزين المعاصم السمراء والنحور النابضة الدافئة.

من يدرى؟ ربما دخل المساء منازل الحسان ففتح أبوابها وهتك أسرارها. آه من النفس الشاعرة لا تفتأ تهيم بالخيال، وتؤمن بأن السراب ليس سرابا!

كانت المنازل مفتحة، وقفت الحسان بأبوابها تحدجنى بنظراتها من بعيد. ولكن الأبواب كانت تقفل كلما قربتنى منها خطواتى، فلا أرى غير طرف رداء موشى بدوائر من فضة، أو ذؤابة شعر تزينه عمامة كالوردة القانية.

كيف تخفى مسيرك أيها المطارد الليلى، ومدينة «مالى» من أقصاها إلى أدناها عرفت بأنك تخلفت عن صحابك، فهى تتربص لك، وتعد عليك خطواتك؟ من ذا الغريب الذى مكنته القرية الصغيرة من الغزل، ومقامه فيها ليلة أو

بعض ليلة . وقد جاء إليها من بلاد بعيدة ، غريب اللباس مجهول اللسان ؟

واخترقت المدينة حتى خرجت من أسوارها الخلفية ، فأشرفت على البحر الواسع المدى . ووقفت بعين ماء أعلل النفس أن توافينى إليها من وافت موسى من أهل مدين !

وفى عودتى صمد لى باب من الأبواب لم يقفل ، وإذا به ..... طفلة فى حوالى العاشرة من العمر ، هى الوحيدة من أهل «مالى» ذكرتنى بلباس نسائها أيام ابن بطوطة . مئزر يغطى أسفل جسدها ، وعقد من القطع الفضية الصغيرة هو كل ما يغطى نصفها الأعلى إذ ينحدر على كتفيها الدقيقين من حول رقبتها حتى ينتهى بقطعة فضية كبيرة تغطى سرتها الصغيرة وسوارات من فضة تحيط معاصمها الرقيقة .

وهكذا تلبس الطفلة لباس جداتها فى العصور الخوالى ، أيام كانت المرأة فى « مالى » تنعم بطفولة الأمم ، وتمرح فى براءة الفطرة .

ألا ويحك يابن بطوطة ! أفسدت علينا نساء ذية المهل .

III

جدّ

ترويض النفس

نسمع كثيراً بأخبار البعثات البحرية، وبعثات ارتياد القطبين ومجاهل القارات، وتسلق جبال الهيمالايا. وكثير منا يميل إلى الاعتقاد بأن البعثة هي مجرد مجموعة من رجال إخصائيين مجهزين بالآلات والعتاد اللازم، تعدهم الحكومات والجمعيات العلمية والأغنياء النافعون بما يلزم من المال.

وقد يكون هذا صحيحاً — ما خلا التجهيز بالآلات — فى بعثة تسافر لتمثيل هيئة رسمية لدى هيئة رسمية أخرى. ولكنه لا يحتوى إلا جزءا من الحقيقة فى حالة بعثات الاستكشاف. فالمال أساسى فيها ولا شك. ولكنه بدون الرأس الذى يدبر تجهيز البعثة وإعدادها لا قيمة له. ولكنه بدون شخصيات أعضاء البعثة ضائع لا محالة.

فالعنصر الإنسانى هو كل شىء فى نجاح البعثات، حتى بعثات التمثيل فى الاحتفالات الرسمية نختار لها رجالا لبقين

حذقوا فن الحديث واللبس والأكل والشرب والرقص .

ولست مغالياً إذا قلت بأن بعثات الاستكشاف قد تتطلب صلابة نفسية ، وقوة احتمال ، وشجاعة وإقداما ، أكثر من الجيوش الذاهبة إلى ميدان القتال . فهذه الجيوش تخرج إلى الحرب وقد راضت نفوس رجالها فى السلم كل الرياضة ، وأعدتهم لكل ضروب الاحتمال والمقاومة . ثم إن روح الجماعة تتضاعف قوتها بزيادة عدد أفرادها .

أما فى البعثات العلمية فليس من السهل أن تجد رجالا مدربين على الجهد المطلوب ، وفى غالبها يكون رئيس البعثة وحده هو القاسم المشترك بينها وبين بعثات سابقة .

هذا إلى أن أكثر رجال البعثات مرانا هم أكبرهم سنا . والسن عائق شديد دون القيام بأعمال تنوء بوقرها أعظم قوى الشباب احتمالا .

والبعثة فئة محدودة العدد . غير مجهزة كالجيوش بفرق خاصة لمهمات البناء والهدم ، وإعدادات الإقامة والرحيل . يعيش أفرادها معا طول الوقت ، أو قد ينقسمون إلى جماعات أو أفراد ، يتابع كل منهم مهمة مخصوصة فى عزلة عن العالم قد تكون تامة ولمدة طويلة .

والبعثة لا تقف أمام عدو إنسانى معروف الطباع ، تستثير فيها حركاته كثيرا من الحماس وغير قليل من الروح الرياضية . بل هى مجموعة بشرية أمام قوى الطبيعة . والطبيعة عدو مخيف ، ذات مزاج قلب ، تهدم اليوم ما بنته بالأمس ، وتدك فى لحظة ما أقامته يد الإنسان فى شهور أو سنين .

أثناء زيارتى لبلاد النرويج ذهبت فى « برجن » أزور مكتشفاً كسب شهرة عالمية فى ارتياد القطب الشمالى . وعند إقبالى عليه اتجهت بكلياتى إلى التفرس فى تقاطيع وجهه . فلما مد يده للسلام على ، مددت يدى دون انتباه . وما إن أحسست يده حتى عرتنى دهشة أعتقد أنى نجحت فى كتمان أمرها ، ذلك أنه لم يبق للرجل من أصابعها غير واحدة أو اثنتين .

وسألت فيما بعد صاحبى الذى قدمنى إلى الرحالة العظيم ، فقال لى : فى إحدى رحلاته ، وأثناء عاصفة ثلجية هائلة ، قام ليلا يوثق من رباط خيمته . وفى تلك اللحظة فقد قفاز يده اليمنى . وانقضت لحظات جعل يبحث فيها عن القفاز ، وهى لحظات معدودة ولكنها كانت كافية لتجمد أغلب أصابعه

والبعثة تتابع غرضا علميا خاصا قد لا يثير فى الجماهير أكثر من اهتمام عرضى . بينما الجيوش تعمل ومن ورائها حكومة وصحافة ورأى عام وأمة تضطرم بنار الوطنية نساء ورجالا وأطفالا .

لذا تتطلب بعثات الاستكشاف من رجالها صفات ليس من السهل أن تجتمع لرجل : حماس بالغ لأغراض البعثة العلمية ، وإيمان بأقدارها ، وهمة عالية ، ونفس نبيلة ، وطبع دمث ، إلى ما هنالك من الصفات التى يكون بها الفرد قادراً على التفانى فى خدمة المجموع ، مستعدا لكل أنواع التضحية . يضاف إلى كل هذا ثلاث صفات أساسية : الطاعة فى الظاهر والباطن أى الطاعة المخلصة للرئيس ، والتمكن من مادة العلم المكلف ببحثها ، والتكوين الحديدى للأعصاب والجثمان . نفس وجسم وعقل من حديد ، هذا ما تتطلبه البعثة من رجالها .

ثم التجانس بين أفراد البعثـــة ، وهو شرط هام من شروط نجاحها .

وقد ضمت البعثة الأجنبية التى كان لى شرف الاشتراك فيهـــا نائبا عن بلادى ، كثيرا من العناصر الصالحة نفسا وعقلا وجثمانا للمهمة الشاقة التى أدتها . ونجاحها كان

يمكن أن يعد نتيجة طبيعية لصفات رجالها الممتازة . ولكنى مع ذلك أميل إلى أعتبار نجاحها شيئاً أقرب إلى المعجزة . ذلك لأنها كانت فاقدة كل أثر من التجانس !

تصور تلك المجموعة الآدمية ألقتها المقادير فى بوتقة واحدة لتؤدى أشق المهام فى أسوأ الأجواء . أربعون نفسا على سفينة طولها أربعون مترا وحمولتها ثلثمائة طن . ضيوف سجن عائم ينظرون إلى الخلاص من رفقائهم قبل الخلاص من سجنهم .

جاءوا من الشمال وجاءوا من الجنوب ، جاءوا من الشرق والغرب ، جاءوا من جونات اسكتلندا وهدارات نيوزيلندا ، نزحوا من استراليـــا ومن جنوب إنجلترا ، غادروا الصعيد والوجه البحرى ، عبروا إلينا من جزيرة مالطة ومن بلاد النوبة ، جاءوا من السواحل ومن البلاد الداخلية ، انتدبوا من الأسطول البريطانى العظيم ومن مجموعة البحرية المصرية التى جارت عليها العوادى منذ « نافارين » حتى عادت سفينة تعرج ، وسفينة تسعل ، وسفينة تمشى بانحراف كالسرطان . جاءوا سفرجيـــة وبحرية وضباطا ومهندسين ، كما جاءوا أطباء وعلماء وخريجين حديثى العهد

بالجامعات . أجناس ونشآت وطباع تعد بعددهم . أربعون نفسا كانوا على ظهر السفينة الصغيرة أسوأ هنداما من منصر «على بابا» . وأبدع نظاما من حرس «هوايتهول» . خمسهم لغته الانجليزية ولا يعرف كلمة عربية . والأربعة أخماس لغته مصرية لا يعرف أغلبهم غيرها .

رفعوا رؤوسهم ذات مساء من سبتمبر فوجدوا أنفسهم فى عرض البحر ينظرون إلى بعضهم بعضا ويقول كل فريق فى نفسه : فى أى بلية أوقعتنا المقادير ، وبأى رزيئة نكبنا ، وكيف نعيش سويا على ظهر العباب تسعة أشهر !

ولم يدعهم للتفكير ببليتهم طويلا جو البحر الأحمر ، أشد أجواء الكرة الأرضية رطوبة وحرارة . وهو أسوأ ما يكون مناخا فى شهر سبتمبر ، الشهر الذى اختارته البعثة لاجتياز البحر الأحمر من الشمال إلى الجنوب ، حينما تكون الرياح شمالية، أى حينما لا يمكن للسفينة أن تتلقى نسمة واحدة تخفف عن ركابها أثر الحر القاسى والرطوبة القتالة !

لم ترزأ فئة بفئة ، بل تولى البحر الأحمر عنهما مهمة البلايا وإنهاك الأعصاب وعكننة المزاج وجر الشكل

عشرة أيام بلياليها، سلمهما بعدها لخليج عدن عشرة أيام أخرى بلياليها.

وتجهمت شواطىء مصر العليا والحجاز واليمن والسودان والإرتريا والصومال، فكانت ترسل عليهم لوافح سمومها، وتطاردهم فيما بينها كأنهم فئة منبوذة ملعونة، غضبت عليها شعوبها فأرسلتها على سفينة الملعونين الضالين.

كان من المستحيل أن يكون تجانس على ظهر السفينة. وكان هذا مصدر ضعف كبير فى تكوين البعثة، ومصدر متاعب كثيرة.

ومع هذا نجحت، وأعتقد أن نجاحها كان نتيجة لرياضة نفس أعضائها فى رحلاتها الأولى، وخصوصا فى رحلتيها عبر البحر الأحمر وخليج عدن.

ولم يكن للنفوس ذاتها فضل البدء بهذه الرياضة. بل كان ذلك عائدا بالأولى إلى قسوة التماس الأول بين كل فرد من أفراد البعثة وزميله، وبين أعضاء البعثة والسفينة وأجهزتها وبين جميع هؤلاء وجو البحر الأحمر المهلك المشقى.

ويظل للنفوس بعد هذا فضل استطاعتها أن تنهض لهذه الرياضة، وللرجال الفضل فى تملك قياد النفوس وسياستها.

فحينما استقرت الأمراض بين رجال السفينة فى الثلث الأخير من رحلاتها الطويلة ، حينما استولى الضعف على أجهزتهم الإنسانية ، ونال من السفينة وآلاتها ، كما نالت الحوادث من أجهزتها ، صمدت النفوس لكل شىء ، واستعدت لكل طارىء ، واحتملت كل ضعف آلى أو جسمانى .

وإن تردد الآن على لسانى قول الشاعر « وإذا كانت النفوس كبارا الخ » فليس ذلك فى عرض الفخر ، ولم تكن نفوسنا كبارا إلى الحد الذى تطلبته مهمتنا ، إنما نحن والحوادث رضناها على أن تبلغ ما بلغته من الكبر .

وبودى لو أننا فى حالتنا الراهنة نفكر مليا بما أقول . فليست الجيوش بمجرد إعدادات ميكانيكية . بل هى قبل كل شىء ترويض النفس على احتمال الأهوال ، وإعداد نفوس الملايين من الناس عن طريق التعليم والتربية والتدريب والصحافة والمنابر العامة والأمثولات الحية — لتهب فى أى لحظة لما يسمونه « الدفاع عن الحمى » و « الذود عن حياض الوطن » . وهذه ليست بمجرد ألفاظ جوفاء ، ونعرة وصياح . بل هى حقيقة رهيبة تقتضى من روح التضحية وقوة الاحتمال ، ومن الدربة والاستعداد والمال . . . وأكثر من كل هذا . . . تقتضى من البشرية أرفع

وأنبل وأقسى وأقوى ما فيها ، وهذه الصفات لا تصل إليها طبائع الناس ما بين ضحية وعشاها ، وإنما تتطلب تكاتف كل جهود أبناء الوطن الواحد ، نحو الغاية الواحدة ، بارادة واحدة ..

ترقيات استثنائية

تختلف سبل قيادة الرجال باختلاف طبائع القواد ، فليس من السهل وضع صورة نموذجية لما يجب أن يكون عليه قائد الرجال . وإنما تدرس القيادة وتحلل فى أشخاص نوابغها وقد يمكن الوصول بعد ذلك إلى شبه قواعد عامة للقيادة تلقنها الشبيبة ، ولكن هذه القواعد لا تستطيع أن تخلق من التابع متبوعا . فقائد الرجال يولد كذلك . وهو فى الشعوب الفطرية يأخذ مكانه من القيادة بحكم صفاته الطبيعية . أما فى مجتمعاتنا المنظمة فكثيرا ما يعطى الحلق للى بلا ودان بحكم الوسط الذى نشأ فيه هذا الأزعر ، وتبعا لوريقات مدموغة تعززها وساطة عائلية أوما إليها تصل به إلى مركز القيادة . حتى ليجد فيها من يتملقة ويشهد له بأن القيادة لم تك إلا له ولم يك إلا لها .

ويلوح لى أن أول ظاهرة تبدو على من ينال مركز قيادة لم يخلق له هى التكشير والشخط والنطر ، وقرع الموائد بقبضة

اليد ، إلى ما هنالك من مظاهر الأمر والنهى الفارغة التى لا تصدر عن تفكير خاص واتجاه معين ، وإنما هى أشبه بجعير ممثل التراجيديا الخائب . كل ما يعرفه من التمثيل هو الزعيق من أم يافوخه ، والتلويح بالأكف والمرفقين .

وإخال القيادة مرتكزة على صفتين أساسيتين : الشخصية أولا ، وفهم الرجال ثانيا .

أما الشخصية فقائمة بذاتها sui generis لا يتفرع عنها أمر آخر . أما فهم الرجال فتتفرع عنه صفتان من أهم صفات القيادة : معرفة القائد تمام المعرفة كيف تنفذ أوامره ، ومعرفته بدقة متى وكيف يكافىء المحسن .

ولم أقل كيف يعاقب المسىء . فالعقاب هو والجعير والشخط عندى سواء بسواء . ليس أسهل على القائد أو الرئيس من أن يعاقب أو أن يشخط . ولكن الصعوبة فى متى وكيف يبتسم ويتبسط ، ومتى وكيف يثيب .

ولست الآن فى عرض الحكم على ملكة القيادة عند قومندان سفينتنا الأسكتلندى فليس هذا شأنى . ولكنى أود أن أشهد له بإحدى صفاتها الهامة : إنه عرف كيف يكافىء رجاله ، وتخير اللحظة المناسبة لمكافأتهم .

ولم يكن الأمر سهلا . فإنه وإن تفاوت بحارة السفينة فى ملكاتهم ، فقد أدوا واجبهم بكل ما أوتوا من قوة وإخلاص وكفاءة . ثم إنهم كانوا نخبة من البحرية المصرية، وقع الاختيار عليهم للقيام بمهمة أدرك ولاة الأمور دقتها وصعوبتها ومشاقها . وقد امتدت مهمتهم إلى تسعة أشهر دون هوادة ، لا يعرفون فيها جمعة ولا أحدا ولا عيدا . ومهمة هذا شأنها لم تك تسمح لغير الصالح بالبقاء . وقد صلحو كلهم إلا اثنان لم تطاوعهما حالتهما الصحية فأعيدا فورا . كيف إذن يكافأ هؤلاء الناس وهم أفراس رهان ؟

كوفىء واحد منهم حوالى الثلث الأخير من الرحلة . وهو رجل أوتى من النباهة الفطرية والشخصية والكفاءة فى أعمال البحر وأعمال الصيد ما لم يترك مجالا لتذمر إخوانه وهم أدرى الناس بتفوق زميلهم .

وسافرت السفينة فى رحلتها الأخيرة متجهة شمالا بغرب شطر السويس . وقد أيقن باقى الرجال أن ترقياتهم رهينة بالرئاسة العليا فى القطر المصرى . وأنها سوف تقرر أياما وشهورا عقب عودتهم إلى الاسكندرية . وربما نسى ولاة الأمور شأنهم بعض المدة فتغاضوا نهائيا عن مكافأتهم .

بهذا لم يفكر القومندان الأسكتلندى لحظة واحدة . فعند ما اقتربت السفينة من السويس اجتمع بى وأخبرنى بأنه يود أن يعلن الترقيات فى الاسماعيلية . واتفق معى على الأسماء وعلى كتمان خبرها . ورجانى أن أتصل بالرئاسة العليا تليفونيا من السويس لأحصل على الإذن باجرائها قبل عودة السفينة إلى الاسكندرية . وقد تمت موافقة الرئاسة العليا صباح وصولنا إلى السويس ، وبقى الخبر مكتوما .

رست السفينة فى بحيرة التمساح أمام مدينة الاسماعيلية . وأمر القومندان ضابطه الأول أن يجمع الرجال بهيئة طابور استعراضى . ثم أفضى إلى رئيس البعثة بالغرض من الطابور وهو إعلان « الترقيات » ، وبأن اللحظة جاءت ليعلن رئيس البعثة ماقررته رئاستها العليا فى إنجلترا بشأن البحارة .

ووقف بين صفين من البحارة والبحارة الوقادين ، ووقف إلى جانبه رئيس البعثة وأعضاؤها . وطلب من ضابطه الأول أن يترجم خطابه جملة جملة . وأذكر منه بعض فقرات :

— أريد وأنا أعلن الترقيات التى وافقت عليها الرئاسة العليا صباح اليوم أن أعبر لكم عن إعجابى بكم ، وثنائى على المجهود الرائع الذى استطعتم به أن تقدموا أعظم خدمة لبعثة

علميـة كبرى . وأنتم من وراء ذلك قد أديتم واجبكم نحو بلادكم إذ رفعتم من شأن البحرية المصرية ، ودافعتم عن شرف الراية المصرية . وأظهرتم العالم الذى كان يتتبع أخبار البعثة على أن فى مصر رجالا قادرين على ارتياد البحار ، لا فى حماية السفن الكبيرة ، بل على ظهر باخرة صغيرة كانت محل إعجاب رجال الملاحة فى كل مكان . فأنا أهنئكم وأهنىء مصر بأمثالكم وأخيراً أرجو أن يدرك كل من يسمع اسمه منكم عند تلاوة قائمة الترقيات أنه استحق الترقيـة كل الاستحقاق ، ونالها عن جدارة .

ثم بدأ فى تلاوة القائمة حتى جاء على آخرها . . .

وإذا بها تضم أسماء جميع البحارة ، والوقادين ، والسفرجية!

كان « إخراج » هذا المنظر — على حد القول السائر — بديعا . ولعلى أكثر من شاهدوه تقديرا له وتمتعا به . فلم يكن يعرف بسر الترقية الإجماعيـــة إلا القومندان وأنا ، والقومندان كان إلى حد ما « بروتاجونست » فى المنظر ، فهو مشغول بتمثيل دوره الهام . أما أنا فكنت أطالع على وجوه الرجال أثر خطبته التى كانت تبدو لهم جوفاء . إذ أن كلا منهم كان يتحرق على معرفة النتيجة ، وعما إذا كان ممن وقع

اختيار القومندان عليهم للترقيـة إلى رتبة أعلى . لذا كانت سيماء القلق تتزايد على وجوههم كلما واصل القومندان خطابه

ورب قائل : منظر نعرفه . فهذه نتائج الامتحـانات فى آخر كل عام دراسى تقدم لنا نماذج من هذا القلق المساور . هذا صحيح ولـكن . . . .

ولـكنك فى حالتنا أمام رجال بسطاء تغربوا عن ديارهم تسعة أشهر لاقوا فيها المرائر ما بين مشقات وأمراض ، بله تعريض حياتهم لأخطار البحار وأخطار الـكشف العلمى فى البحار .

لـكنك لم تعاشرهم تسعة أشهر ، ولم تك طبيبهم ، ولم تعرف سرهم وعلنهم ، ولم تتابع هوايتك الـكبرى وهى دراسة الرجال تمارسها فيهم .

ولم تـكن تعرفهم كما عرفتهم واحدا واحدا ، ولم يك حدبك عليهم مثل حدبى ، وخوفك من فشلهم مثل خوفى ، واهتمامك بنجاحهم مثل اهتمامى .

تصور هذا الموقف الشاذ : بعثة بحرية تخرج من بريطانيا — رأس الإمبراطورية التى قامت على أكتاف ملاحيها وقوادها البحريين فرنسيس دريك ، كوك ، نلسن —

وتهبط أرض مصر ، تستعيرها سفينتها العلميـــة الصغيرة بضباطها ومهندسيها وبحارتها ووقاديها . وتسافر بها و بهم إلى المحيط الهندى تذرعه طولا وعرضا مدى تسعة أشهر .

بريطانيون يسافرون علي إحدى سفن البحرية المصرية التى لا نعرف بعد إن كانت ناشئة ، أو هى من بواقى مجد دارس . فما إن تسير بهم السفينة بضعة أميال فى البحر الأحمر حتى يجهروا بقلقهم ، ويعلنوا ندمهم على أن لم يستعيروا سفينة بريطانية !

بعثة بحرية تسافر يساورها الشك فى أقدارها سلمتها إلى رجال من بلاد غير بحرية .

بريطانيون يتفكهون علنا فى أول عهد الرحلة بحكاية « مالطة يوق » تكفل بقصها عليهم بعض ضيوف مصر ، ممن يرغدون بعيشها بقدر ما يعيشون على النوال من سمعتها، وجر اسمها فى التراب ، وتحقير رجالها . وقد راحوا يجعلون منها حكاية مصرية ، وهى فى الأصل نكتة تركية :

أرسل السلطان أسطوله لزيارة مالطة . فخرج الأميرال وأخطأ فى حساباته الملاحية حتى تاه فى البحر الأبيض . ثم عاد إلى سيده سلطان تركيا يقول « مالطة يوق ! »

فكان رجال البعثة يقصونها علينا كما سمعوها فى الأسكندرية من ضيوفنا الأجانب ، منسوبة إلى البحرية المصرية فى عهد أحد الخديويين : أرسل الخديو أسطوله الخ . . . وعاد أمير البحر إلى سيده يقول له « مالطه ما فيش ! » وقد حفظوا كلمة « مافيش » بنصها فهم ينطقون بالنكته هكذا « مولتا موفيش » .

أقول إنك إذا كنت عشت مثلى تلك الأيام السوداء فى أوائل عهد الرحلة ، ورأيت كيف يتطور رأى البريطانيين على السفينة شيئا فشيئا من السخرية إلى القلق ، ومن القلق إلى الاطمئنان ، ومن الاطمئنان إلى الدهشة ، ومن الدهشة إلى الاعجاب برجال البحرية المصرية ،

فإنك حينئذ تدرك كيف تمتعت « بإخراج » القومندان الاسكتلندى لمنظر الترقيات الاستثنائية على ظهر سفينتنا الراسية فى بحيرة التمساح .

هكذا أتصور شعور الوالدين بنجاح أولادهما ، وكان شعورى !

سوف يعود إذاً هؤلاء الرجال بعد غد إلى أهلهم فى الأسكندرية يحمل كل منهم على ذراعه شريطا جديدا فوق

ما كان يحمل . وسوف يعرف أهلهم أنهم لم يفارقوهم عبثا . وسيطالعون زملاءهم بأمر ما كسبوا نتيجة احتمالهم ورجولتهم .

لى ولك أن نعود من أمثال هـــذه الرحلات محملين بالتجاريب ، مفعمين بالمعرفة . لى ولك أن نقنع بكثير من الخيالات التى قـــام عليها تعليمنا وتثقيفنا . ومع أن البحار البسيط قد كسب هو أيضا خبرة ومعرفة يختال بهما على أقرانه إلا أن أفقه الضيق ، وأفق أهله وعشيرته وأقرانه وأصحابه ، لا يحتمل ولا يكشف عن فوائد لرحلة المحيط الهندى أكثر من الفائدة المادية الأدبية التى تتأتى من الترقية إلى رتبة أعلى .

أما أن تشكو لى تلك السيدة التركية الجليلة من أقرباء أحدنا فتقول « ترقيـة كويس أفندم ، ماليش . لكن يا إبنى ضرورى ألشان الولد واهد نيشان . إيفت أفندم ! نيشان أظيم أظيم كتير » فهذا من خصائص الطبقات المتعلمة .

ثم تقدم رئيس البعثـــة بين الصفوف وخطب ممتدحا البحرية المصرية بلا تحفظ . وأعلن أن رئاسة البعثة فى انجلترا قدرت بجهود الرجال أكبر تقدير ، وأنها قررت صرف مرتب شهر إضافى لكل واحد منهم مكافأة له . كما قررت

ضرب مدالية تذكارية من البرونز توزع عليهم ، ومن الفضة لتوزع على الضباط والعلماء .

وتقدمت أنا لأخاطبهم باللغة الوحيدة التى تصل إلى قلوبهم ، اللغة العامية ، تلك اللغة المحرومة ، المنبوذة من الدوائر الرسمية لا لذنب إلا لأنها لغتنـــا الحقة ، لغتنا الصادقة . لا زواق لها نخفى تحته عواطفنا الكاذبة كما نملك أن نحيط فؤادنا الفارغ بإطار من اللغة المنتفخة الأوداج . ونخفى فى قعقعة القافات وتعطيشات الجيم قلة إيماننا بما أدخل علينا من ضروب الحضارة الغربية العليا .

لا أحسبنى فى خطبتى بالعامية زدت عن العشرين كلمة ، استطعت أن أضمنها كل ما فى نفسى من عواطف الشكر والثناء على الأبطال الحقيقيين لرحلة المحيط الهندى .

وهتف الرجال للبعثة ورئيسها وقبطانها ، كما هتفوا بحياة أسعد الناس بنجاحهم .

وليقل القوالون ما شاءوا فى الهتـاف ، فإنى لعليم منذ سمعت هذا الهتاف الصادق أن ما يقال فى الحط من قدره وقدر من ينالونه عن جدارة ، ويطربون لنبراته ، قد أثاره الحسد والحقد والضغينة .

وإننى لفخور إذ أحس بأن خير ما عدت به من هذه الرحلة هو حب هؤلاء البسطاء الذى تجلى فى كل مناسبة ، والذى أتيح له الظهور بشكل إجماعى فى هتافهم باسم طبيبهم وراعيهم .

ونادى الضابط الأول بالانصراف ، فتحولت الصفوف المنتظمة إلى رجال يتعانقون ويهنىء بعضهم بعضا .

هكذا عرف القومندان كيف يكافىء رجاله ، وتخير اللحظة المناسبة لمكافأتهم . وهذه إحدى الصفات الهامة التى تقوم عليها قيادة الرجال .

حينما قمت خطيبا

ليتنى أجد الوريقات التى خططت عليها عاجلا خطبتى قبل إلقائها مباشرة، حتى لقد اضطررت أن أتنحى مكانا خلف الستار فى قاعة الجمعية الملكية لأكمل كتابة الخطبة التى كان على أن ألقيها فى ذلك المكان عقب محاضرة رئيس البعثة . ولا زلت أذكر فترينه أفقية استندت إليها ووقفت أكمل خطبتى فوق زجاجها .

لأن هذه الخطبة كانت لغزا لم يتمكن من حله أصدقائى ويصعب أن يعترف الناس بقصورهم عن الفهم،وخصوصا فهم أصدقائهم حتى ولو فصلت بينهم تسعة أشهر من حياة مجهولة لهم ، على ظهر سفينة ضئيلة ذهبت تجوب البحار البعيدة .

فرحلتى قامت فى ذهن أصدقائى كنزهة بحرية جميلة ، كما يركب الأغنياء يخوتهم الخاصة ليطوفوا حول الأرض . لم

يكن الأصدقاء ليشكوا لحظة بما تمثله هذه التسعة أشهر فى حياتى . وقد اعتادوا منى كثرة التنقل، فحسبوا أن سفرى فى أرجاء المحيط الهندى حتى أبعد من خط عرض ١٠ جنوب خط الاستواء ، وحتى مدخل الخليج الفارسى شمالا ، هو وسفرى إلى شمال أوروبا وشمال أفريقيا وبعض جزر البحر الأبيض المتوسط سواء بسواء . وإنه لكذلك لو لم تكن حياتى وتجاريبى على ظهر السفينة تسعة أشهر من أشد وأقسى ما لقيت فى حياة مليئة بالصعاب .

ففى خطبتى بالجمعية الملكية حاولت أن أنفذ مباشرة إلى الصميم الإنسانى تحت المظـــاهر الدنيوية التى تظهر بها البعثة الكبيرة .

قال صاحبي الكوماندرفـ . . . وهو يقدمنى إلى إحدى السيدات فى ميناء من موانى المحيط الهندى :

— هو فى الظاهر طبيبنا ، ولكنه فى الواقع فيلسوفنا .

والسيدة من هواة مطالعة الكف ومعانى الوجوه .

فأجابت فـ . . ، وكانت تتفرس منذ لحظة فى يدى وأنا ألوح بها فى الهواء ، كأن الكلمات قاصرة عن تأدية المعانى فأحاول أن أصور هذه بأصابعى فى الهواء :

ـ قد يكون صاحبك فيلسوفا ، ولكن أصابع يده تنفى كل صلة له بالفلسفة . إنها أصابع رجل من أهل الفن .

قال ف . . . :

ـ لعلى أسأت التعبير . إن أهم ما يعنى به الدكتور فوزى فى الحياة هو دراسة الإنسانية . ونحن حوله على السفينة .... نماذج دراسية من الطبقة الأولى .

صدق الكوماندر الذى يتكلم عن خبرة ، ويصدر الحكم وفق ملاحظته الشخصية ، لا عن علوم قراءة الكف والبازرجة. فقد حققت بعض أمنيتى فى دراسة البشرية بحياتى الملاصقة لأربعين من مختلف الملل والنحل ، يعيشون مزدحمين فى الحيز الضيق الذى تمثله سفينة طولها أربعون متراً .

وحاولت أن ألخص دراستى البشرية للجمهور الذى جاء إلى دار الجمعية الملكية ينصت لكل شىء إلا لمحاولة التغلغل فى الصميم الانسانى للبعثة .

ثم فى أى جو تكلمت ؟

هـذا رئيسنا ليس يحيا إلا بذكرى محطاته العلمية واكتشافاته البحرية . وهو يلقى على الأسماع طرفا من رحلتنا العظيمة فى صوت متزن هادىء ، ولهجة خطابية يلقنها

الانجليزى أثناء الدراسة حتى يكون على استعداد دائما للخطابة فى نهاية حفلات العشاء . وإذا كان رئيسنا اليوم متوعكا بعض الشىء ، فلم تختف فى غنته الأنفية نبرة الفخار بالبعثة التى أتقن تجهيزها ثم قادها إلى ختامها بنجاح باهر .

وهذا زميل لى يقول بالعربية ما قاله رئيسنا بالأنجليزية . معاذ الله أن يكون مترجما لكلمات الرئيس . إنما هو فى كلياته وجزئياته كما هو فى خطابته نسخة مصرية صادقة لرئيسنا الانجليزى . فليس من عجب أن يشاركه فى التغنى بالمحطات العلمية والاكتشافات البحرية . وقد كان عند حسن ظن الجمهور به إذ صور بجهود البعثة العلمى أحسن تصوير ، ولقى خطابه النجاح الذى يستحق .

ثم خرج علينا ثقيل لا أعرف من أين أتى ، وألقى خطاباً لم أفهم فى أول الأمر القصد منه ، وقد ضمنه كثيرا من الآيات القرآنية والأشعار ، وكانت لهجته فقهانية واضحة .

وانكشف الأمر حين انتهى هذا الدخيل فى خطبته إلى الإشادة بذكرى منصب خطير كان هو الداعى بالذات إلى هذا الحفل لتكريم البعثة . وراح الخطيب المجهول يكيل القافات المقلقلة والثاءات المفأفأة مدحا وتكريما لذى المنصب

الخطير . ثم ثنى بوكيله ، وثلث برئاسة عليا يغلب على الظن أن أمرها يهمه بنوع خاص .

وهكذا انتهت خطابة هـــذا المخلوق العجيب بأمثال « شوبش » لشخصيات لابد وأن تكون لمناصبها أهمية واضحة فى مستقبله ، وكانت جالسة بالذات فى الصف الأول من الحفل الكريم . ودعا ولج فى الدعاء ، حتى رجوت أن يكون له منهم بعد هذا جزيل العطاء !

فى هذا الجو وقفت أخطب ، وحاولت فى خطبتى أن أنفذ مباشرة إلى الصميم الإنسانى تحت المظاهر الخلابة للبعثة . حاولت أن أكشف الغطاء قليلا عما تكلفته هذه المظاهر من جهاد نفسى أشد روعا من كل جهاد عقلى أو جثمانى .

لذا بدوت لغزا لأصدقائى حينما لم أطرق الموضوع لا من ناحيته العلمية ولا حتى من ناحيته التصويرية . وقد أبى عطفهم علىّ أن يحكموا على موقفى بما هو جدير به .

لقد كان نشازا مزعجا حين جئت أمام الناس أكشف الستار عما وراء الكواليس . وأظهرهم على تلك المشتبكات المخيفة من اللوالب والعجلات والتروس النفسية ، استطاعت أن تدور بحكمة ، وأن تنتهى الى النتائج والمظاهر الخلابة التى

تكلفوا مشقة الحضور هذا المساء للاطلاع عليها . مع أن اختلاف معادنها وصريرها وقوتها وسرعة دورانها كانت تنذر لا بوقوفها فحسب ، بل باشتباكها وتحطيمها .

وقد حقت على كلمة أستاذ فى علوم النفس — يا لسخرية القدر ! — حضر الحفلة بنـــاء على إلحاح صديق حسن الظن بى :

— خطبة صاحبك لا هى من الأدب ولا هى من العلم فى شىء . بصراحة كده لا هى فى العير ولا فى النفير .

ذلك كان حكم أستاذ علوم النفس علىّ حينما قمت خطيبا أكشف عن الحالات النفسية لأربعين رجلا مختلفين جنسية وثقافة وتدريبا ولغة ودينا ، حشدوا على ظهر سفينة صغيرة تسعة أشهر متوالية ، قضوا أربعة أخماسها فى عرض البحر.

وللقدر معى سوابق من مثل هذه السخريات . فقد ألفت فى مستهل شبابى رواية شعرية . وفى الليـلة الأولى لتمثيلها الغنائى قدمت لأمير من أمراء الشعر . كان لى من العمر إذ ذاك أربعة وعشرون عاماً ، وهذا الشاعر فى أواخر العقد السادس . وكانت الرواية استهلالا لحياتى الأدبية ، بينما الشاعر فى ذروة مجده الأدبى . إلى القارىء كلمة أمير الشعر

المجيد لمؤلف يبتدىء حياته الأدبية برواية نظمها شعرا من أولها لآخرها:

— كويسه كويسه ، الموضوع جميل . لكن بالحق ما عملتهاش شعر ليه ؟ كان حقك عملتها شعر !

ربما كان هذا الرجل شاعرا كبيراً ، ولكن مما لاشك فيه أن نفسه كانت أصغر من شعره .

الشرق والغرب

كان أول ما رأيت من الهند بحرا هادئا صافى الزرقة ، تلعب فيه الحيات البحرية . وهى حيات سامة صفراء اللون ، تتنفس الهواء وتتوالد فوق اليابسة ، ولكنها اعتادت الحياة فى الماء ، وتطور تكوينها تبعا لهذه الحياة فتفرطح ذيلها إلى ما يشبه زعنفة الذنب فى الأسماك . وكانت كثيرة حول سفينتنا قبيل دخولنا إلى كراتشى . ما إن تشعر بقربنا حتى تغوص فى الماء وهى تتلوى ، كأنها بريمات ذهبية تثقب صفحة من اللازورد. واسترعى بصرنا منظر الحدآت البحرية الضخمة يظهر منها على سطح الماء ما يشبه آذان فيلة غاطسة تهش بها عن أجسادها بعض الهوام .

ثم كانت كراتشى عاصمة السند . وكانت الهند فى بومباى ومدراس وما دورا ورامیشفارام الخ . ولكن التماس الأول كان فى تلك المياه الزرقاء تموج بالحيات السامة والحدآت

البحرية ، وكان فى الأبقار مسرحة فى شوارع المدينة الهادئة بعد التاسعة مساء . وكان فى دار للسينما تعرض شريطا هنديا حسبته أحد المنتجات المسلسلة للسينما الهندى . ولكنى عرفت فيما بعد قيمة المصادفة السعيدة التى قادت قدمى لرؤية هذا الفيلم النادر . فالسينما الهندى — كالسينما المصرى — هو الهند يراها أهلها بعيون هوليوود لا بعيونهم . والجمهور هناك لا يقبل إلا على النوع ذى المناظر الفخمة المزيفة ، والوقائع التى يقهر فيها البطل أعداءه بتلك الفتوة الأمريكية قوامها شك المقالب على طريقة المصارعة الحرة ، وتسلق جدران قصور منيفة حيث اعتقل الأمير الأسمر امرأة شقراء ، تترقب والهة مقدم البطل الذى يجمع إلى جرأة أل كابونى طراوة رودلف وتخنث رامون . وقد يستعير الممثل الهندى فوق وجهه الأسمر تلك الشوارب العجيبة التى اعتاد وليام باول وأقرانه أن يقدموها لنا بالزوج والفرد كأنها بضاعة البائع المتجول . أذكر شريطاً رأيته فى أوائل عهد السينما المصرى يكمن فيه وغد الفيلم ليبطش ببطله . ويمر به هذا الأخير فيشكه مقلبا وينطرح الاثنان أرضا يدوران حول بعضهما فى شجار ، ينهض أثناءه الواحد مرة فيشده الآخر من ساقه شدة يتقى

أثرها بشقلبة بهلوانيـة . وإذا لم يكن لى مطعن على المقلب كفرجة شائقة فى ذاتها،فانى أعترض على أن يكون هذاالبطل وذاك الوغد مصريين . وكثيراً ما شاهدنا مشـــاجرات المصريين فى الريف والحضر،فعرفنا ضرب الروسية والمسك بالتلابيب ، وشك المقلب على الطريقة البلدية ، وضرب الشلاليت والبونيةوالبصق فى الوجوه،إلى هنالك من ضروب الخناق المصرى . ولا أذكر أنى حظيت برؤيةعراك فى مصر كذلك الذى رأيت فى الفيلم المصرى. كما لم أسمع بأمر المصرى يرمح بفرسه هاربا فاذا ما انطلق فى ظل حائط ، انقض عليه مصرى آخر من أعلى الحائط فامتطى الفرس وراءه وأمسك بعنانه وبتلابيب الوغد الهارب .

شبيه بأمثال هذه الألاعيب الصبيانية ما رأيت فى الفيلم الهندى الذى يقبل عليه الهنود فى دور السينما الكبيرة . أما الفيلم الذى كان من توفيقى أن أظفر برؤياه فى الليالى القليلة التى قضيتها بكراتشى ، فقـد كان يعرض فى دار متواضعة ، وعلى بضع عشرات من الدهماء. وهو فيلم غنـــائى قليل لأشخاص بسيط الموضوع .

غلام من أصـل ملـكى يحميه الاله « شيفا » ، ويضطهده

وأمه مغتصب لعرشه . يقطن الغلام وأمه كوخا وسط الأدغال ، ويظهر لنا « شيفا » بأذرعه العديدة يقود خطوات الغلام ويقوى من عزيمة أمه . ممثلة دور الأم مغنية تعبر عن آلامها بأغان هى أفضل ماسمعت من الموسيقى الهندية . وتصطحب الحوادث موسيقى الآلات تتبين الأذن من بينها نواح « السارونجى » أو الكمنجة الهندية . وكان تمثيل الصبى وأمه طبيعيا . والقصة كلها تحركها روح استسلام وإيمان وتجرد ، هى الروح الهندوسية العليا . وتنتهى الرواية بخروج الصبى وأمه عن العالم ، وانصرافهما إلى عبادة الإله الحامى ، وقد انصرفا بإيمانهما عن العرش المغتصب ، وكل رواء هذه الدنيا الشريرة .

كان هذا الفيلم إذن خلاصة الروح الدينية التى نسمع بها عن الهند ، هند « اليوجى » و « السنيازى » ، هند المهاتما غاندى . وقد أشرفت على ناحية من نواحى العصيان المدنى ، وفهمت المغزى الروحى للمغازل المنزلية إذ رأيت هذا الفيلم المتواضع فى قاعة متواضعة . ولكنى فى نفس الوقت أدركت ناحية من نواحى الضعف فى بعض الحركات الروحية حين تدخل ميدان السياسة العملية . فهذا الغلام الذى صان نفسه وصانته

أمه عن شرور الحيـاة (أو « كارما » فى الفلسفة الهندية) قد بلغ ذروة التلاشى النهائى (« البراهمان » أو « النيرڤانا ») ولكنه لم يغل بعمله هـــذا يد الراجا الذى اغتصب عرشه وعاث فى الأرض فسادا .

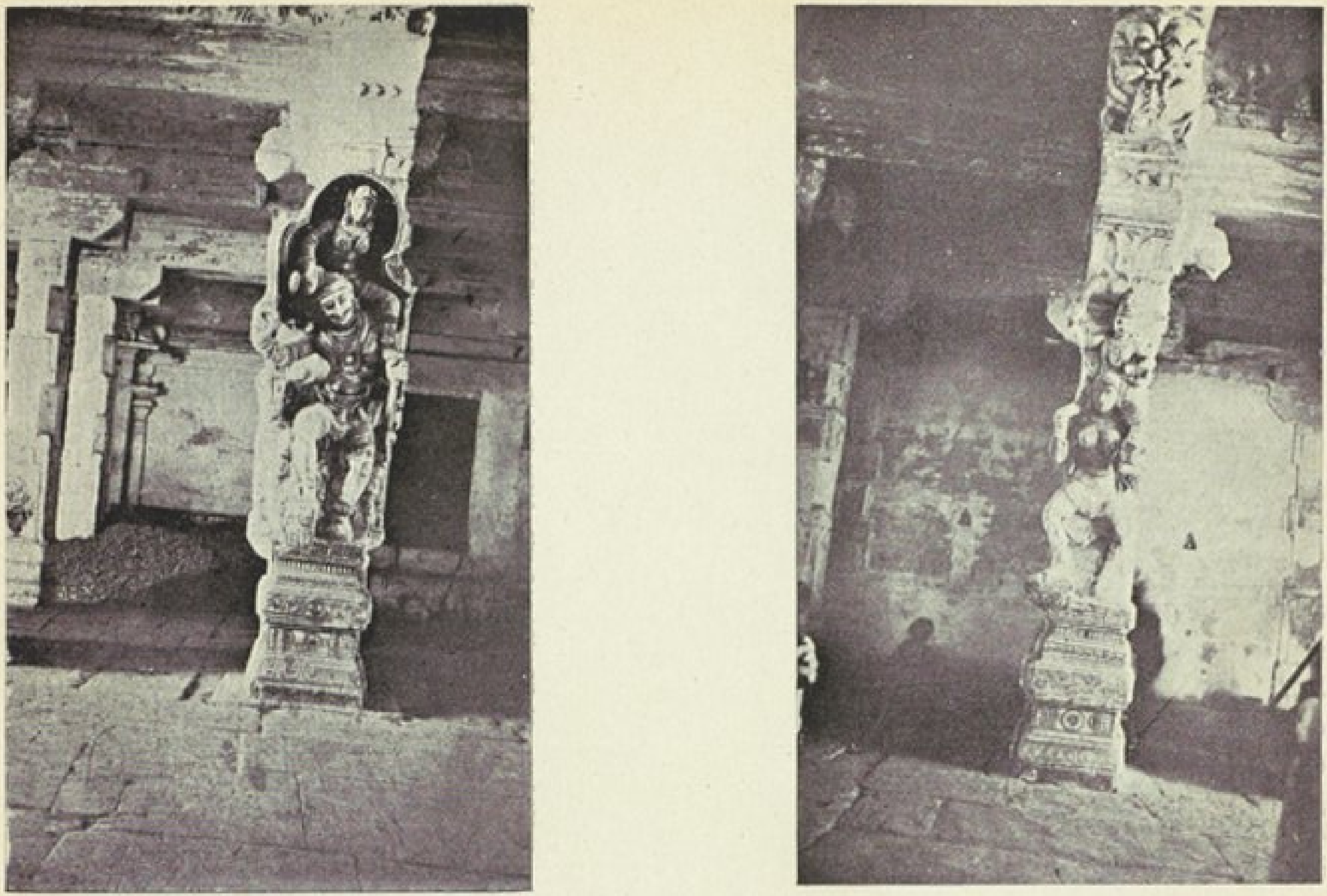
آمنت أن الصبى ضرب للبشرية جمعاء مثلا عاليا فى التجرد والتقوى . وأومن أن الروحانيات تضىء للانسانية طريقها نحو السمو الروحى . ولكن قوة هذه الروحانيات تضعف إذا اكتفى بها سلاحا . فهى سلاح من نور يضىء فى الظلام فحسب . بينما الظلام تكتنفه أسلحة مادية ربما لم تكن كلها شرا . فهذا غاندى يسمو بروحه ، ويهرول بقبضة الملح الرمزية يتبعه العصاة متجردين . سلاحهم ضد بريطانيا مغزل بيتى ، بينما تعمل الأنوال البخارية فى بومباى حتى لتزاحم لانكشير ، ويقوم المهندس البريطانى بحجز المياه فى خزانات سكلوبيه تحيى موات العدد العديد من الأفدنة ، والطبيب البريطانى بتحضير اللقاح والمصل لإنقاذ حياة الملايين من الناس ، وينظم السياسى أداة الحكم فى نيو دلهى وكلكوتا ومدراس وبومباى لخير الامبراطورية العظمى وخير الموظفين البريطانيين ، ويقيل المصلح الاجتماعى من عثار

الأرامل الهنديات ، وينقذ الصبيات دون العاشرة من زواج الكهول . فاذا كانت خطط غاندى الروحية ترفعا عن شرور هذا العالم ، وتجردا عن سوآته ، فليست السياسة البريطانية فى مجموعها شرا مستطيرا ، ولا تكون مقاومتها بتجنب مطامعها وإهمال طرائقها وفيها ما فيها من التقدم بالهند فى طريق الحضارة الوحيدة الممكنة اليوم على ظهر البسيطة . وأى أثر لغاندى بروحانيته ضد البراهمة ، وهو منهم ، حين حاول الأخذ بيد المنبوذين ، ورفع السبة البشرية التى أنزلها نظام الطبقات الهندوسى بمئات الآلاف من الآدميين كل ذنبهم أنهم وليدوا خارج الطبقات الأربع المعترف بها ؟

إنى مع هذا معجب بغاندى وأمثاله من القادة الروحيين، معجب بكل فكرة تطهر البشرية من الحمأة . ولكنى أفضل بلا تردد حضارة كالحضارة اليونانية ، أو ربيبتها حضارة أوروبا بعد تخلصها من نير القرون الوسطى . لأنها حضارة وسط بين الروحية والمادية ، ولأنها حضارة تنادى باطلاق العقل البشرى من عقاله ليفكر غير مقيد ، فتشجع الفلسفة ودراسة الطبيعة فى كل أطوارها وأوضاعها ، ولأنها حضارة تقوم على الجمال وعبادة الجمال ، ولأنها تسعى إلى المساواة الاجتماعية ،

وتهيء للفرد فى الجماعة سبيل المعرفة ، لتمكنه من أن يصبح عنصرا حيا فى بناء العالم ، يساهم فى تقدمه ، وينعم بثمار هذا التقدم ، لاحجرا صلدا يقوم عليه البناء الاجتماعى فى سبيل إسعاد أفراد معدودين يسكنون هذا البناء ، ويتمتعون وحدهم بهوائه فى الصيف ، ودفئه فى الشتاء .

ولست أزعم بأن الحضارة الأوروبية بلغت الغاية التى نادى بها الفلاسفة والمصلحون . فليس لهؤلاء مع الأسف سلاح غير العقيدة والرأى الحر ، بينما يسطو الرجال العمليون على نتاج قرائحم فيسخرونه لأغراضهم . خذ فكرة الاستعمار من ناحية التفكير المطلق : النهوض بالشعوب الفطرية إلى مستوى الإنسانية المتحضرة ، وإشراك هذه الشعوب فى موكب البشرية الرائع ، يتجه إلى الخير العام ، فى ظل السلام الدائم ثم تأمل عمل الشطار الذين تقنعوا بقناعها ، واستظلوا برايتها ، ثم راحوا يقتلون وينهبون باسم الحضارة . كلا لست أقول بأن الحضارة الأوروبية بلغت المثل العليا التى نادى بها الفلاسفة والمصلحون . ولكنى أعجب إعجابا بظاهرة واحدة فى هذه الحضارة : **التفكير الحر** . فهو الصمام الدائم تملك به الحضارة إصلاح ذاتها بذاتها . قارن بين أوروبا منذ



تمثالا الوفاء الزوجي بمعبد « راميشفارام » (أنظر صفحة ١٨٠)

صيحات « جان هوس » و « كلفن » و « لوتر » وا كتشافات « جاليليو » و « كوبرنيكوس » ، وتفكير « إيراسم » و « بيكون » ، وبين الهند منذ فجر تاريخها الهندوسى وهو أقدم من حضارة اليونان . ففى أوروبا خرج الفرد يبحث عن الحقيقة والجمال حتى وجد شجرة المعرفة فأكل منها. وعرف الخير والشر فدونه فى الإنسيكلوبيديا . وتكشف لعينيه جور الحكام وبقية من الضغط الدينى فناقش سياسة الحكم بلسان « مونتسكيو » و « روسو » و « فولتير » ثم قام يهدم الباستيل بيد الشعب ، وينادى بنهاية الملكية المطلقة بلسان « دانتون » واليعقوبيين . وكان يسعى طول هذه الأجيال بفكر علمائه نحو تسخير الطبيعة . فكانت قوى البخار والكهرباء والمغناطيسية والإشعاعات ، وكان البترول فى البر والبحر والهواء . وإذ شعر بعدوان السلطة الجديدة استحوذت على كل هذه القوى برأس المال ، ثار عليها بلسان « كارل ماركس » . ذلك هو مجمل تاريخ الحضارة الأوروبية منذ نهايه القرون الوسطى حتى آخر القرن التاسع عشر .

ومهما كانت الأخطاء التى ارتكبت فإن فضيلة هذه الحضارة فى أنها تملك أداة إصلاح ذاتية هى : **التفكير الحر**

ضع هذه الصورة إلى جانب صورة الحضارة الهندية : نصوص مقدسة ، وفقه ، وقصص دينية ، ومعابد دراڤيديه . ثم يجيء «جوتاما سا كياموني» الملقب بالبوذا ، وينشر تعاليمه المعتدلة من شمال الهند إلى جنوبها، فلا يمضي عليها قرن حتى تكون قد امحت من الهند ، لتعيش في التبت وبورما وسيلان والصين واليابان . ويتوالى الغزو على الهند من الأسكندر والمغول والبرتغاليين والهولنديين والانجليز ، ومع هذا لا تزال الغالبية العظمى من عشرين وثلثمائة مليون من الناس تعيش في حدود نظام الطبقات الهندوسية : «البراهمة» و «الكشاتريا» و « الڤيشيا » و « الشودرا » . كما لا يزال الآلاف منهم يعيشون خارج الطبقات منبوذين ، يدنس ظلهم — مثل كلاب ابن حنبل — رجال الطبقات العليا . يؤمنون بـ « شيڤا » و « ڤيشنو » ، و « كالي » ، و « كريشنا » ومع ذلك ليس لهم أن يقربوا باب المعابد .

هل من دليل عقلي واحد تعلل به هند الحكماء والشعراء والفلاسفة أن تكون « برهمانيا » أو « كشاتريا » فتنعم بكل مزايا الطبقة الحاكمة معززا مكرما ، أو تكون «شودرا» فتبقى خادماً أو عربجيا ، أو تكون خارج الطبقات فتعيش منبوذا

مذلولا ، كأتعس ما يكون عليه المجذوم أو السائمة الجرباء ، فى مجتمع يعلو بالبقرة إلى مقام القداسة ، فيغتسل ببولها ويتبرك بروثها ؟ أجل ، تفسر لك هند الحكماء ذلك بأنك برهمانى لأنك ولدت برهمانيا ، وأنك منبوذ لأنك ولدت منبوذاً . أنظر إلى البقرة ، لا إلى هذه البقرة الواحدة، بل إلى جميع البقرات الهندية ، لم تنال كل هذا التقديس ؟ لأنها ولدت بقرة .

أجل أنا معجب بروحانية المهاتما (الروح العظيم) ، معجب بخصائص الشرق الروحية ، أود أن أعيش بروحى مترفعا عن الدنايا . أغرمت بأناشيد «الريجفيدا» وببعض فصول « الرامايانا » و « المهابهاراتا » وبالقصة التمثيلية « شاكونتالا » وأفهم صيحة الفخر تصدر عن أمين الريحانى : « أنا الشرق ! عندى فلسفات وأديان ، فمن يبيعنى بها طيارات الخ . . . »

ولكنى وقد عرفت بعض ما أحب أن أعرف عن الهند ، وعرفت بعض ما أحب أن أعرف عن أوروبا ، أشد إيمانا بالغرب وحضارة الغرب . وأكرر قولى : مهما كانت الأخطاء التى ارتكبت ، فان فضيلة هذه الحضارة أنها تملك أداة إصلاح ذاتية هى : التفكير الحر *

الوفاء الزوجي

رأيت فى بهو من أبهاء معبد « راميشڤارام » بجنوب الهند تمثالين متواجهين لم أكن لأفهم المعنى المقصود بهما لولا قول صاحبي الهندى : « رمز الوفاء الزوجى » . ولم يكن التمثالان من الفن العالى. وإن تميزا بميزة فهى القبح والسوقية التى أراها فى كل صور هذا المعبد وتماثيله. ثم هما قد كشفا لى عن معنى الوفاء الزوجى عند أهل الشرق عامة .

الفكرة واحدة فى التمثالين . فى أحدهما يحمل الزوج « جماعته » على كتفيه وقد تدلى ساقاها على جانبي صدره كما تدلى ثدياها فى اتجاه رأسه . والزوج فارس هيجاء ، لبس درعه والتأم لأمته . وفى التمثال الآخر تحمل الزوجة زوجها على كتفيها وقد تدلى ساقاه المدرعان على جانبى صدرها فى حذاء ثديها المتدليين . الوفاء الزوجى هنا واضح ، معناه ألا يفترقا فى السراء والضراء . يرمز التمثالان إلى هذا الوفاء بالاتصال

المادى الدائم . وليس ما يمنع أن يقصد بهذا الرمز الاتصال الروحى الدائم أيضا . ولكنى بلا تردد أفضل « بنيلوبا » مثلا للوفاء الزوجى وهى تترقب عودة زوجها فى قصرها بـ «إيثاكا» ، يحيط بها الطامحون فى الزيجة منها ، يتوسلون إليها باللين والعنف أن تقطع كل أمل فى إياب زوجها « أو دسيوس » فقد انقضت أعوام على سقوط طروادة وعودة جحافل الإغريق الظافرة إلى بلادها . وهى تقاوم إغراءهم وإلحاحهم ولجاجتهم فى أنوثة بديعة . فتعدهم أن تفكر فى الأمر متى انتهت من نسج بدأته وشيكا ، ثم هى تقوم فى الليل لتفتق ما رتقت بالنهار .

أما أن يرمز إلى الوفاء الزوجى بذلك الاتصال المادى المكره ، حيث يحمل الزوج زوجته وهو شاكي السلاح ، وتحمله زوجته شاكى السلاح أيضا ، فهذا نوع من الوفاء يذكرنى باختلاط معنى العفـــاف عندنا . فليس العفاف فى مصر أن تترك المرأة حرة تخالط الرجال فتحافظ على عهدها وواجبها ، وإنما العفاف أن تعزلها عزلا تاما عن الرجال غير زوجها ، وأن تدفع عنها عين السوء . . . حتى ولو بالفاسوخ وأن ترسل زغراتك إلى الرجال فى الطريق ، أو فى مدخل

السينما ، حينما يختلسون النظر ليشـــاهدوا جمال زوجتك ورشاقتها وأناقتها ، وأن تمنعها من تسلم خطابات باسمها ، ومن الخروج وحدها ، وتحيطها بالجواسيس من الخادمات والبوابين وبائعى الكازوزة ، أن تكاد تمنع عنها النور والهواء ثم تقول: امرأتى عفيفة ! هذا الفارس الذى يحمل امرأته فى حله وترحاله ، وهذه المرأة التى تحمل زوجها ملتثما مسلحا ، هذان التمثالان القبيحان فنا ومعنى فى معبد « راميشڤارام » ، كشفا لعينى عن معنى العفة المكرهة .

ولقد ذهبت الهند فى إكراه المرأة على الوفاء لزوجها مذهبا كان أسوأ أنواع الإجرام المنظم . إذ حكمت على الزوجة ألا تعيش عقب زوجها ، وأن تحرق حية مع جثته فكانت تحمل فى محفة يحوطها أهلها مهللين مكبرين، وقد ألبست أفخر ثيابها وحليت بكل حليها . ثم توضع قسرا فوق جثة الزوج المددة على إيوان من أخشاب الصندل ، ويصب البراهمة الزيوت ، ويوقدون النار فى جوانب الإيوان مرتلين فيلتهم الأتون المزغرد جثة الزوج وجسم الزوجة البض النابض .

ومهما قيل فى نير الاستعباد البريطانى . فقد كان الفضل

للدولة الحاكمة في أن تقضى على هـذه العادة الوحشية بقوة القانون ، بعد أن حاول الانجليز أكثر من قرن إيقافها بقوة الإقناع. فكانوا لا يصرحون بحرق الأرملة حتى تقف أمام الموظف الانجليزى، وتعلن رغبتها التي لامرد لها في أن تحرق وجثة زوجها . على أن لملوك الهند المسلمين (المغول) فضل الأسبقية فى تحريم هـــذه العادة أينما امتدحكمهم . ومع هذا — وإلى اليوم — لايزال حظ الأرملة الهندوسية من أعثر الحظوظ . يفرض عليها ألا تلبس سوى غلالة بيضاء بسيطة ، وألا تتحلى بغير حبل فى عنقهـا يدل على ترملها ، وأن تحلق شعرها حلقا تاما فى كل شهر مرة . ولن أنسى ذلك المخلوق الأقرع ، رأيته يهيم على شاطىء قناة « بكنهام » بين « مدراس » و « ماهابالى پورام » فى غلالة بيضاء قذرة لا يقرب النـاس ولا يقربونه ، وسألت صاحبي : أهو مجذوم ؟ فأجابنى : بل هى أرملة !

إننا نتشدق بالحكمة « مكره أخاك لا بطل » ، ولـكننا نعمل على تـكذيبها . فقد ذكرنى رمز الوفاء الزوجى فى معبد «راميشڤارام» بأن منا من يكره النساء على العفة، ويحبس الزوجات على الوفاء ، ثم يشير إلى أوروبا فى صلف الجهال قائلا : أنظر

إلى الفساد الضارب فى أعطاف المجتمع الغربى نتيجة حرية الاختلاط .

فاذا كنا إلى عهد قريب نرى القذى فى عين أوروبا ، ولا نرى جذع النخلة فى عيوننا ، فقد كان لنا على الأقل بعض العذر ، حين كان الفساد الضارب فى حياتنا الزوجية يعمل فى الظلام كالنمل الأبيض فلا يبقى إلا على مظاهر نخرة أما اليوم وقد ارتفعت الغشاوة عن عيوننا ، فرأينا الفساد الاجتماعى لا يمنعه كبت حرية المرأة وتجريدها من حقوقها الطبيعية ، فهل نصر على أن نخفى رؤوسنا الصغيرة كما تفعل النعامة فى الرمال ، ونطمئن إلى طهارة مجتمعنا ما بقيت نساؤنا رهينات المحابس ، قعيدات البيوت ، ممنوعات من الاختلاط بالرجال ؟

جوتاما ساكياموني

عقب عودتى من المحيط الهندى ، ذهبت أشاهد معالم القاهرة مع صديقى الكوماندر ف . . . ضابط الملاحة . ودخلنا نزور المغاورى ، وهو مدفن مؤسس طائفة ورئيس تكية ، يصل إليه الإنسان فى نهاية مغارة من مغاور المقطم رأينا فى حرمه شابات يتمرغن على البلاط متضاحكات كأنهن يتابعن لعبة من اللعبات . وسألنى الكوماندر عن هوية أولئك النسوة فأجبته :

— يشكين العقم . ويعتقدن فى قدرة المغاورى على شفائهن .

وارتسمت على شفتيه العريضتين ابتسامة بقيت حتى خرجنا من ظلام الضريح إلى حديقة التكية . واتجهنا إلى جبهة الجبل جوار قبر أمير مصرى . وهناك جلسنا على دكة عالية نشاهد بعض القاهرة تظهر لنا عن بعـــد خلال فرجة فى

الصخر الجيرى . وبعد هنيهة قال لى :

— أى بون شاسع بين مصر والهند ! هنا المرح والفرح يضىء نفوس الشاكيات حتى فى ظلام المسجد ، وعند أقدام ضريح ولى الله . وهناك الكآبة حتى فى بهجة أعياد الهندوس .

— هنا الأمل وهناك اليأس استحكمت حلقاته ياعزيزى ف . . . أتدرى ما الفرق الحد لا بين الهندوسى والمسلم ، بل بين الهندوسى وأغلب سكان الأرض ؟ اعتقاد الهندوس بتناسخ الأرواح .

— وما علاقة هذا بكآبة الهندوسى الدائمة ؟

— فى الموت راحة لك أنت المسيحى ، كما فيه راحتى أنا المسلم ، انتظاراً لما نناله فى الآخرة جزاء وفاقا لأعمالنا فى دنيانا . ولكن الموت لا ينهى عذاب الهندوسى . فروحه تعود إلى الحياة متقمصة فى جسم آخر ، قد يكون إنسانا أو حيوانا ، عالى المقام أو مرذولا محروما ، تبعا لقضاء الآلهة وفق ناموس التناسخ . لك ولى عقاب واحد وثواب واحد فى أسوئهما نذهب إلى النار ، وفى أحسنهما ندخل الجنة . أتعرف ماهو الثواب الأكبر الذى تتوق إليه روح الهندوسى يعذب جسده بالحديد والنار ، وقد بلغ غاية السمو الروحى

بالعزلة والتقشف والتأمل ؟ أن تتخلص روحه من حلقة التناسخ المفزعة ، فلا يولد من جديد .

— وأين تذهب روحه ؟ أفى شبه سمائنا المسيحية ؟

— ليس للهندوسى سماء كسمائكم ولا جنة كجنتنا . إنما السعادة التى تتوق إليها روحه هى بلوغها « البرهمان » أى العدم .

— لم أكن أحسب أن دينا من الأديان ينتهى بهذا الثواب السلبي . أيمكن أن يوجد من يعتقد بالعدم ؟

— هو نوع من العدم عسير الفهم علينا . والواقع أن الروح حين تبلغ « البرهمان » أو « النيرفانا » تفنى فى الروح الكبرى التى هى الأصل والفرع . روح براهما ، الثالوث الذى هو واحد ، والأحد الذى هو ثلاثة . أو هى تعود إليه كما تعود نقطة الماء إلى الأقيانوس العظيم . فالنقطة موجودة بحكم أنها لم تفن . ولكنها تلاشت فى مياه الأقيانوس ، فهى فانية فيه وهو باق .

— دعنا من هذا ، فلا قبل لى بهذا الهجص وتلك الشعوذة ياعم حسن (هكذا يدعونى ف ....)

— ولكنى أردتك أن تفهم سر كآبة الهندوسى الدائمة ،

سر ذلك التجهم يرفرف على كل ما هو هندوسى . وتلك الأثقال التى ترزح تحتها روح الهنـــدوسى حتى لا تنجو منها وأنت تزور معابدهم ، أو تتصل عن قريب أو بعيد بحياتهم . إنى حين خرجت من الهند ، شعرت بشعور سجين القبو يخرج إلى النور والهواء والحرية . كان كل شىء بها ثقيلا على نفسى بما ابتعثه فيها من ضيق ويأس وأسى على الإنسانية ترسف فى سلاسل العقائد القاسية .

وانحدرت وصديقى الكوماندر من أعلى التل نحو القاهرة لنقضى يوما من أيامنا الأرضية طالما تمنيناها ونحن فى سجننا البحرى العتيد على تلك السفينة العلمية الصغيرة . هو فوق ممشاه يطالع النجوم ويستطلع الأفق ويسبر الأعماق ، وأنا بين شباكى فى توقيت وملاحظة وفرز وغسيل ، أو وسط معملى فى جمع وترتيب ومطالعة وتدوين .

ولقد أنسانى ف . . . بضحكه العالى ونكاته ، كما أنسانى ما أحاطنا فى تجوالنا من ضروب الجمال الدنيوى ، تلك الغمة النفسية التى كادت تتملكنى نتيجة الاسترسال فى الفلسفة الهندية .

ولكنى ما كدت أخلو بنفسى حتى وجدت الظلام يكتنفها

رويدا رويدا ، يتسلل وئيدا كما يتسلل الليل صيفا فى البلاد الشمالية . فان ملاحظة الكوماندور فى مقام المغاورى ، تلك الملاحظة العاجلة التى أسرعت بتفسيرها له، لم تكن قد تعدت بعد دائرة تفكيرى . ولم يك تفسيرى لها إلا محض رد فعل ذهنى . وإذ خلوت إلى نفسى بعـــد منتصف الليل ، كانت الملاحظة قد بلغت ينابيع شعورى ، فأعادتنى إلى تلك الهند التاعسة ، وذكرتنى بكآبة الهنود وجو المعابد الهندوسية المرهق

ومازلت أذكر لحظة ركبت فيها المعدية بين «دانوشكودى» فى جنوب الهند ، و« تالايمنار » فى شمال سيلان . فقد وليت ظهرى حينئذ لعالم مرعب ، تسكنه آلهة ترتعد لمنظرها الفرائص تقوم على حراستها تماثيل وحوش خرافيـة ، تطالعك من قباب المعابد وفوق أبوابها ، وكأنها تقطع ما بينك وبين رحمة السماء لتخضعك لأسيادها الافظاظ غلاظ القلوب ، ذوى رؤوس الفيلة ، وعيون السمكة وأجساد القردة .

وإذا لم تتمكن ضحكات ف . . . ونزهتنا المصرية فى انحاء القاهرة من دفع الكآبة التى ابتعثتها الهندوسية فى نفسى ، فقد استطاعت ابتسامة واحدة فى أحراج سيلان من رفع الغشاوة التى ضربتها على قلبى وعينى معابد الهند وآلهتها . وهى ابتسامة

تمثال قد من صخر ، أنقذته الأيادى البارة من العفاء تحت النبت الاستوائى الذى أغار فى سيلان على مدن كاملة ، فدفنها بين جذوره الملتوية وتحت أوراقه المتناثرة . ولقد تحدثت فى مكان آخر عن «آنوارد ابورا» إحدى المدن التى دفنها الحرج الاستوائى . ولا يهمنى من أمرها الآن سوى هذ التمثال القائم فى فرجة افتتحتها يد المنقب الأثرى فى غابتها المتشابكة ، وابتسامته الساحرة التى أنقذتنى من هول الأصنام الهندوسية «كالى» و «إيندرا» و «شيفا» و «جانيشا» .

تلك هى ابتسامة «سيدهارتا جوتاما ساكيامونى» الملقب بالبوذا ، والذى يدين بتعاليمه اليوم مائة وثلاثون مليونا من سكان آسيا .

فقد عاش البوذا ومات ببلاد الهند منذ خمسة وعشرين قرنا ، فى حقبة الدهر اليقظة التى عاش فيها «فيثاغورس» و «إسكيلوس» بأرض يونان ، و «أرميا» و «حزقيال» فى بنى إسرائيل . و «وزرادشت» صاحب شريعة المجوس فى إيران . و «لاوطسى» و «كونفيوسيوس» فى الصين . وخضع البوذا للعقائد الهندوسية القاسية مغلولا فى فكرة التناسخ . فاذا كذب على مربيته قالت له «حذار أو تولد مرة أخرى فى

هيئـــة أفعى » . وإذا رأى مسكينا أو مقروحا سمع والدته تقول « سامسارا ! حلقة الحياة المفزعة . هذا رجل أذنب فى ميلاد سابق » . أما الرجل الناعم يحظى باحترام الناس ، فقد ولد كذلك نتيجة أعمال صالحة قام بها فى تناسخ مضى .

ولد «سيدهارتا» فى إقليم « النيبال » بلاد الجوركا ، وسط غابات « الصال » الرفيعة ، وحقول الأرز المصفرة ، حيث ترى الضياع والقرى رابضة عند أشجار المنجة والتمر هندى ، ولد عند أقدام جبال «النيبال» السوداء . ترتفع خلفها هامات « الهيمالايا » ، رافعة قناتها الشامخة يتوجها الجليد الأبدى .

من أسرة « جوتاما » النبيلة ، أمه « مايا » ، وأبوه سيد عشيرة « ساكيا » ، كبر وترعرع فى بحبوحة . أحب وتزوج فارع القوام وسيم الطلعة ، ساحر الصوت قوى الذراع سديد الرماية . رغد العيش لولا عقل جبار أبى عليه أن يستسلم لأوضاع الحياة التى أقامتها حول مشاعر بنى جلدته عقيدة كلها شقاء ، واحتبست فيها عقولهم فلسفة دينية كلها تشاؤم .

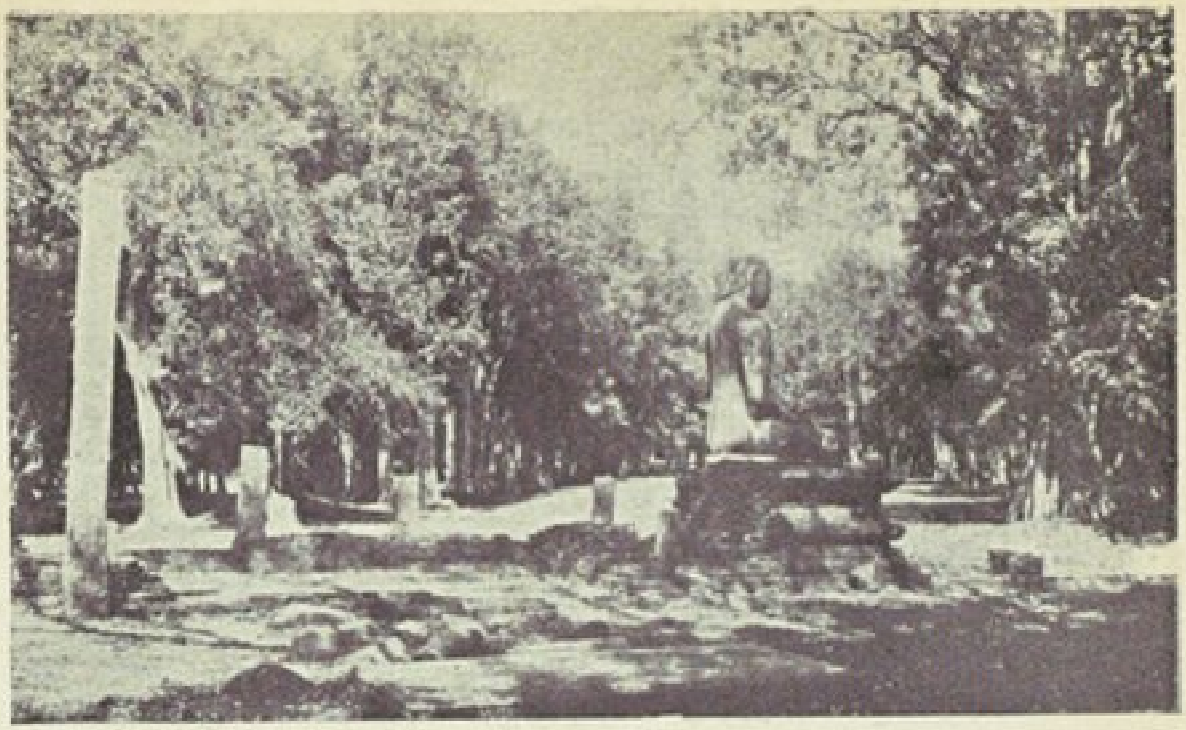
غادر أبويه والزوجة المحبوبة . وإنهم ليحاولون بمجهود أخير إضعاف عزيمته ، فيكشفون له عن طفله النائم مفتر الثغر بادى الغمازات فى أطرافه العارية . وإذا به يقول « وهـــذا

أيضاً قيد آخر يجب أن أكسره لأتخلص » ، ويخرج إلى الغابة وقد تخلى عن كل ما يربطه بهذا العالم . وراح يبحث عن الحقيقة فى ضروب التقشف الهندوسى من جوع وتجريد وتعذيب ، حتى أنهك قواه ، والتصق جلده بعظمه بعد ست سنوات من هذه الحياة الشاقة . صحا ذات مرة من إغماء طويل ، ولم يلهمه تقتيل الجسد طريقة للخلاص ، فعدل عن الصوم والتقشف ولكنه لم يعدل عن التفكير والتأمل بحثا وراء الحقيقة . فهجره تلاميذه الخمسة وهم يتهمونه بالردة . وواصل التجوال وحيدا حتى بلغ بلدة « بوداجايا » قرب « بنارس » ، وقد شعرت نفسه بالسأم ولكن اليأس لم يتطرق إليها .

وإذ كان جالساً تحت شجرة جميز يستظل من هجير يوم شديد القيظ ، أو يستروح نسمات الأصيل ، جعلت روحه تنتقل من تجرد إلى تجرد ، وعقله الباطن يرتفع رويدا حتى استضاءت بصيرته بنور العرفان .

« وحينما بلغت هذا ، شعرت بأن روحى قد خلصت من سوأة الشهوات ، وسوأة الخطل ، وسوأة الجهالة . ومنذ تلك اللحظة عرفت أننى لن أولد ثانيا ، ولن أعود إلى العالم »

ومنذ اللحظة التى حلت عليه فى ظلال شجرة « البودى »



تمثال البوذا
وسط المرج
سيلان



تمثال حارس
المعبد البوذى
سيلان

(أنظر صفحة [illegible])

فى الربع الأخير من القرن الخامس قبـــل الميلاد ، لقب « سيدهارتا جوتاما » بالبوذا ، أى الحكيم .

وقد طوف فى طول الهند وعرضها خمسة وأربعين عاما بعد تلك اللحظة . يأتزر بالإزار الأصفر اللون الذى يلبسه الرهبان البوذيون إلى اليوم ، عارى القدمين ، يحمل صحفة الأرز الذى يجود به عليه الأقيال والأمراء وعامة الشعب ممن سحرتهم أحاديثه العذبة ، ونفسه السامية فى تواضعها .

وحين أوفت سنه على الخـــامسة والثمانين ، أصيب بالدوسنطاريا من جراء أكلة قدمها له حداد فقير ، فشعر بدنو أجـله . وخشى أن ينال الحداد ضر بسبب وفاته ، فأوصى صفيه « أناندا » أن يذهب إليه بعد موته فيخبره بأن وجبتين كان لهما عنـد « سيدهارتا » مقام خاص : الأولى هى التى بلغ على أثرها الحكمة تحت شجرة «البودى» ، والثانية أكلة الحداد التى بدأ يدخل بسببها فى «النير ڤانا» سبيل الخلاص النهائى .

وحاول بمجهود أخير أن ينهض . فنهض وسار بضع خطوات ، ولـكن قواه خانته مرة أخيرة . فرجا تلميذه وصفيه «أناندا» أن يرفع عنه إزاره لينشره تحت خميلة قوامها ثلاث أشجار من الصندل . وتمدد فوق إزاره ، وأسند رأسـه إلى

ذراعه . ثم التفت إلى صفيه وكان يبكى ، فقال :

« كفكف من عبراتك يا « أناندا » . ألم أخبرك بان فى طبائع الأشياء أن نفارق أعز النـاس علينا ، وأقربهم إلى قلوبنا ؟ »

وأشار إلى جسده قائلا « هذا المزيج يجب أن يتحلل إلى عناصره ويتلاشى ! »

« لايحولك شأن من الشؤون عن مواصلة جهادك الروحى يا « أناندا » . وسوف تخلص من سوأة الشهوة الملحة ، وسوأة الكينونة الفردية ، وسوأة الخزعبلات والجهالة ! »

« رب قائل فى نفسه يا « أناندا » بعد فنائى ، خفت نبس المعلم ، فلا معلم لنا بعده . كلا ! فالمبادىء والتعاليم التى لقنتكم إياها هى أستاذكم بعدى »

« والآن وداعا أيها الإخوان . كل شىء هالك ، مآله إلى الزوال . تلك طبيعة الأشياء . واصلوا جهادكم حتى تبلغوا سبيل الخلاص »

بهذه الكلمات اختتم حياته « سـيدهارتا جوتاما ساكيمونى » الملقب بالبوذا . وكان ذلك فى أواخر سنة ٤٨٠ قبل الميلاد ، على ضفاف نهر « هيرانيا فاتى » .

فما هى الحكمة المودعة فى نفس البوذا ؟ وما سر الابتسامة التى استقبلتنى فى أحراج سرنديب ، فسرى عن نفسى ما أصابها من قسوة العقائد الهندوسية ؟

« يا أيها الرهبان ! تلكم هى الحقيقة السامية عن الآلام : الميلاد عذاب ، الشيخوخة عذاب ، المرض عذاب ، الموت عذاب ، فراق مانحب عذاب ، فوات مانتوق إليه عذاب . وقصارى القول : التعلق بالحياة عذاب »

« تلكم ، أيها الرهبان ، الحقيقة السامية عن سبب الآلام : الظمأ — وهو أصل الميلاد المتكرر — تصطحبه الشهوة واللذة التى تلقى متاعها هنا وهناك . وهذا الظمأ مثلث الفروع ظمأ اللذة ، وظمأ الحياة ، وظمأ الثراء »

« تلكم ، أيها الرهبان ، الحقيقة السامية عن وقوف الآلام : تقف الآلام بوقوف هذا الظمأ . وهو وقوف لا يتأتى إلا فى غياب العواطف . تقف بالتخلى عن الظمأ ، بالاستغناء عنه ، بالتخلص منه . بالقضاء على شهوات النفس »

« تلكم ، أيها الرهبان ، الحقيقة السامية عن السبيل إلى وضع حد للآلام : هو السبيل ذو المسالك الثمانية ، صدق الإيمان ، وصدق الحديث ، وصدق السلوك ، وصدق

الكسب ، وصدق الاجتهاد ، وصدق التفكير ، وصدق التأمل »

فى هذه الكلمات — وقد اتفقت النصوص على أنها كانت أول ما قاله « سيدهارتا » بعد أن هبطت عليه الحكمة تحت شجرة « البودى » — أركان العقيدة البوذية .

وليست عقيدة فلسفية تبحث عن أصل الوجود . كما أنها لا تستعين بقوى خارجية ، خارقة للعادة . ولا تعد الإنسان بمعونة فى الضراء خلا المعونة التى يمكن أن يتلقاها من نفسه . فالبوذى يقف حيال برنامج بسيط ، هو خلاصة صراع ذهنى بين الرجل ونفسه ، يجب أن يخرج منه ظافرا .

وهذه الأركان الأربعة (أو الحقائق السامية) قامت عليها حياة البوذا نفسه . فقد اطلع على شقاوة الناس فرائس الأمراض والشيخوخة والموت ، وشعر بآلام فراق الحبيب ، وقرب غير المحبوب ، وفوات ماتتوق إليه النفس . ولم يقف أمام كل هذه المشاعر مكتوف اليدين ، ولم ينكس رأسه يأسا . وإنما راح يجاهد منتزعا نفسه من كل صلة فردية بهذا العالم ليجد السبيل إلى الخلاص من حلقة التناسخ الأبدية ، تلك الحلقة التى أطبقت على عقول فلاسفة الهند دهورا ، غير معتمد على معونة أحد سوى نفسه . فماذا تستطيعه آلهة الهندوس

وهى نفسها أسيرة حلقة التناسخ فى مقامها السماوى ؟ إنها لشبيهة بالإنسان ولو فى مستوى أعلى ومقام مكين . ربما كانت ظالمة غشوما ، أو مترفقة رحيمة . ولكنها لم تخلص الهند الوثنية من الآلام . ولم تخلص حتى نفسها من وطأتها .

فليبحث « جوتاما » الحكيم كيف يعبر إلى الشاطىء الآخر حيث يستكن القلق ، وحيث ينفصل الأزلى عن الزائل . حينئذ يمكنه أن يواجه البشرية يعلمها كيف تعبر بحر الحياة اللجى وعلمه نبراس يهدى العالم المغمور فى دياجير الجهالة والشقاء

جاء البوذا فى وقته ، ليخلص الهند من حظها العاثر فى آلهتها القساة وفلسفتها المرهقة . جاء يقضى على نظام الطبقات الظالم ، فيرفع الوضيع إلى مقام العاهل الظافر وقد نجحت رسالته نجاحا نشهد آثاره اليوم . . . ولكن فى غير الهند ! فبعد أن جاء الإمبراطور العظيم « آزوكا » ، وحمل رسالة البوذا إلى أطراف الهند ، وأرسل ابنه « ماهيندا » يبشر بها فى جبال سرنديب ووهادها ، لم يحل القرن السادس الميلادى حتى كانت البوذية قد شردت فى الهند تشريداً ، لتطرد فيما بعد طرداً . وعادت الآلهة القديمة إلى قدس أقداسها ، تنضح بالزيت وتنثر لها الأزهار ، وتخرج فى مواكبها المروعة ، ليرتمى

تحت دواليب عرباتها آلاف الناس ، استسلموا لكهنتهم حين عجزوا عن فهم رسالة البوذا الروحية .

ولكن من يدخل المعبد الهندوسى كما دخلت ، ويرى الآلهة ترمقه بعيون جامدة فى شراستها ، ويملأ عرانينه عبق البخور مختلطا برائحة الزيت ومياه الخزانات الآسنة تغتسل فى مياهها بشرية ملهوفة ، ويرى الرجال تنبطح انبطاحا أمام الثور « ناندى » وعلى وجوههم سيماء الرعب والكمد واليأس والأسى ، أقول إن من يرى هذا المنظر ويحس بمعناه كما رأيت وأحسست ، لا يتمالك أن يشعر بتعاسة هذه الانسانية ، ووطأة حلقة التناسخ على أرواحها . ويتنفس الصعداء حين يولى ظهره — كما وليت — جنوب الهند فى « دانوشكودى » ، ويتوجه شطر شمال سيلان البوذية فى « تالايمنار » — التى أنطق بها فى صميم نفسى «طلايع المنار» — وينزل بمدينة « آنوراداپورا » يتجول فى أرجاء حرجها الاستوائى . فتوقفه وتأسر لبه ابتسامة هادئة ، انطبعت على وجه تمثال من الصخر لرجل جالس جلسة شرقية .

هذا الرجل هو « سيدهارتا جوتاما ساكيامونى » الملقب بالبوذا .

١٧

مَشاعِر

منفى الزعيم

نسائيات

حياة البحار

تلك السفينة

منفى الزعيم

بلغنا فى الهزيع الأخير من الليل مجموعة جزائر سيشل ، وانتظرنا انبلاج الفجر لنتمكن من اجتياز الممرات الملاحية وسط الشعاب إلى بور ڤيكتوريا فى جزيرة « ماهى » . ولا أحسبنى أنسى يوما جمال تلك الجزائر ، أقدامها فى مياه المحيط وذؤاباتها مجللة بالسحب البيضاء . وهى ترفل فى حلل من الخضرة الاستوائية . وكان أول خاطر عبر ذهنى إذ نظرت من نافذتى المستديرة : هذا هو المنظر الذى تلقى الزعيم الشيخ وقد حملته سفينة الغاصب من السويس فى بهمة الليل ، حين قابل القوة الغاشمة بقوة الحق واليقين .

كما كان أول ماحدثنى به التاجر اليمانى الذى صعد إلى سفينتنا فى ميناء عدن هو أنه رأى زعيمنا الشيخ المهيب عند وصوله إلى عدن ، وكان ضمن من تهافتوا على يده فقبلوها .

وكان أول ما طلبت من دليلى فى « ماهى » أن يأخذنى

إلى بيت الزعيم . فتسلقنا التلال السندسية سالكين سبيلا غير مطروق ، إلى منزل منفرد متكىء على صدر الجبل القشيب تلقتنا ببابه أسرة محام مجوسى قدر فينا عاطفة الحجيج ، فطوف بنا فى أرجاء « البنجالو » الذى أعد لإقامة الزعيم الشيخ وصحبه وأشرفنا من منظرته على ميناء ڤيكتوريا والبحر ترصعه الشعاب وارفة الظلال . ثم أخبرنا بأن « الباشا الكبير » لم يحتمل البقاء فى هذا المرتفع فأسكن فى المدينة قرب الميناء . وبقى صحبه هنا طول مدة منفاهم . ولما كان مقام الزعيم فى المدينة قد تحول إلى مكاتب شركة « الإيسترن » ، فقد انتهيت إلى استيحاء ذكرى الشيخ الذى كان محط شباب الجيل ، فى هذا المقام الجبلى الساحر ، ما دامت عيناه قد أشرقت يوما بما يمتد إليه طرفى عصر ذلك اليوم المبارك فى حياتى الجوالة .

وقفت لحظة بعيدا عن الجماعة أتأمل رواء جزيرة « ماهى » . وقد طارت بى أجنحة الذكرى آلاف الأميال ونيفا وعشر سنين إلى اللحظة التى حملتنى فيها قدماى حثيثا إلى منزل بحى « الإنشا » ، كان هو أيضاً محج الشباب والشيوخ يوم تضافرت جميع القوى الغشوم على أن تمنع وصولنا إليه . كنت مدفوعا برغبة أقوى من استبداد الحكم فى أن أرى

الزعيم عن قرب ، وأسمع صوته ، وألمس يده الطاهرة .

دخلت البيت العتيد ، وارتقيت سلمه الجانبى إلى حيث وقفت جماعة تنصت إلى صوت لم أسمعه من قبل . ولكنى لم أشك بأنه الصوت الذى حدثنى عنه صاحب سمعه قبلى ، وكان صحفيا بارزا فى صف المعارضة :

— تنصت إلى خطبه كأنك تسمع سمفونية من سمفونيات بيتهوفن .

ولقد أدركت ، وأنا شاب أنصت من خلف الجماهير دون أن أرى المتكلم ، أننى أعيش لحظة من تاريخ بلادى سوف أحدث بها أبنائى وأحفادى وهم لا يكادون يصدقون أننى عشت تلك اللحظة .

ولم أفهم أو أحاول أن أفهم ما يقول ، وإنما أنصت كما أنصت إلى ترتيل لا تهمنى كلماته ، أو إلى موسيقى الفيولونسيل تصحبها موسيقى أوركستر كامل لا دخل فيه للصوت الآدمى .

ثم استطعت أن أتسلل حتى أبلغ الصف الأول فأرى الزعيم ، وأحقق على وجهه المعانى المتدافعة التى ابتعثتها فى نفوسنا مواقفه المجيدة . رأيت الشيبة الباهرة ، والوجه المحمر ، والعيون المغولية تبرق ذكاء وهمة من تحت الحواجب المشتعلة بياضا

ورأيت قبضة اليد القوية تدق على خشب المكتب كما سمعت بها ضمن ماسمعت عن حياة هذا العماد الصلب قد من صوان مصر . ولمست هذه اليد مصافحا وقد أودعت لمستى كل معانى الحماس والحب والإعجاب ، يحتويها قلب ابن عشرين .

وكان رفقائى فى سيشل مشتغلين بتصوير المنزل والتحدث إلى أصحابه عن إقامة المنفيين فيه . ولكنى بين جمال تلك الطبيعة الكريمة وسط المحيط الهندى ، وبين مواكب الذكرى نسيت وجودى فى سيشل . وجعلت أتابع الزعيم من مصر إلى مالطه ، إلى فرنسا ، إلى مصر . ثم إلى سيشل وعدن وجبل طارق ثم إلى مصر مرة أخرى .

رأيته فى موكبه الظافر يوم عودته الأولى بعد منفى مالطه وجهاد فرساى ، حيث اجتمع لصوص الأمم الضعيفة .

ورأيته يخطب العمال البريطانيين فى شبرد ، فينادى الحرية التى تكون فى بابل وتنتقل إلى مصر ويونان وروما ، ويتمثل بقول « هردر » فيها .

ورأيته يخطب بعد عودته من سيشل فيحدثنا حديث الأب البار عن منفاه فى المحيط الهندى . ويذكر رفاقه واحدا واحدا فتترقرق فى عينيه عبرات .

رأيته فى عربة مزركشة يذهب إلى افتتاح البرلمان الأول ورأيتنى على شاطىء عابس فى طرف فرنسا الشمالى الغربى أطالع خبر وفاته، فأمسك بيد صديق لى هو مواطنى الوحيد بذلك الصقع الموحش، وكأنى وجدت فى قربه العزاء الوحيد فى محنتنا الوطنية الكبرى.

رأيته . . . ورأيته . . . ورأيته. وكان خياله المهيب ماثلا أمامى فى كل خطوة خطوتها على ظهر هذه الجزيرة الفتانة. وما سألت عن جوها ومناخها حتى تساءلت فى نفسى « ترى كيف تحملت بنية الشيخ العظيم هذا المناخ الاستوائى! »، وحين عرفت بأن الملاريا لاوجود لها فى سيشل، شكرت العناية التى حفظت حياته الغالية، مع أنه كان قد طوى فى ترابه حينئذ سبع سنين.

وإذ التقيت ببعض أمراء « لحج » يتريضون فى شوارع « ماهى » وارفة الظلال، وعرفت بأنهم منفيون، ذكرت أن خطوات زعيمى قد سبقت خطواتهم فى هذا الطريق المظلل. وأن لكل من تلتقى به آراؤه الحرة على ظهر هذه الصخرة النائية أن يفخر باتصال مجده بمجد الزعيم الخالد، الذى عانى ما عانى فى سبيل تحرير بلاده، لا فى عنفوان شبابه، وإنما فى

انحدار شيخوخته ، حين يطلب الأبناء لآبائهم الحياة الوادعه ويحتملون عنهم الكريهة والهوان .

هذه « ماهى » عاصمة جزائر سيشل ، منفى الزعيم الذى لم يقهر ، موطىء أقدام الحرية التى لا تغلب ، واد مقدس قدر لى أن أحج إليه فى سفينة مصرية يرفرف عليها العلم الأخضر ذو الهلال المثلث النجوم .

نسائيات

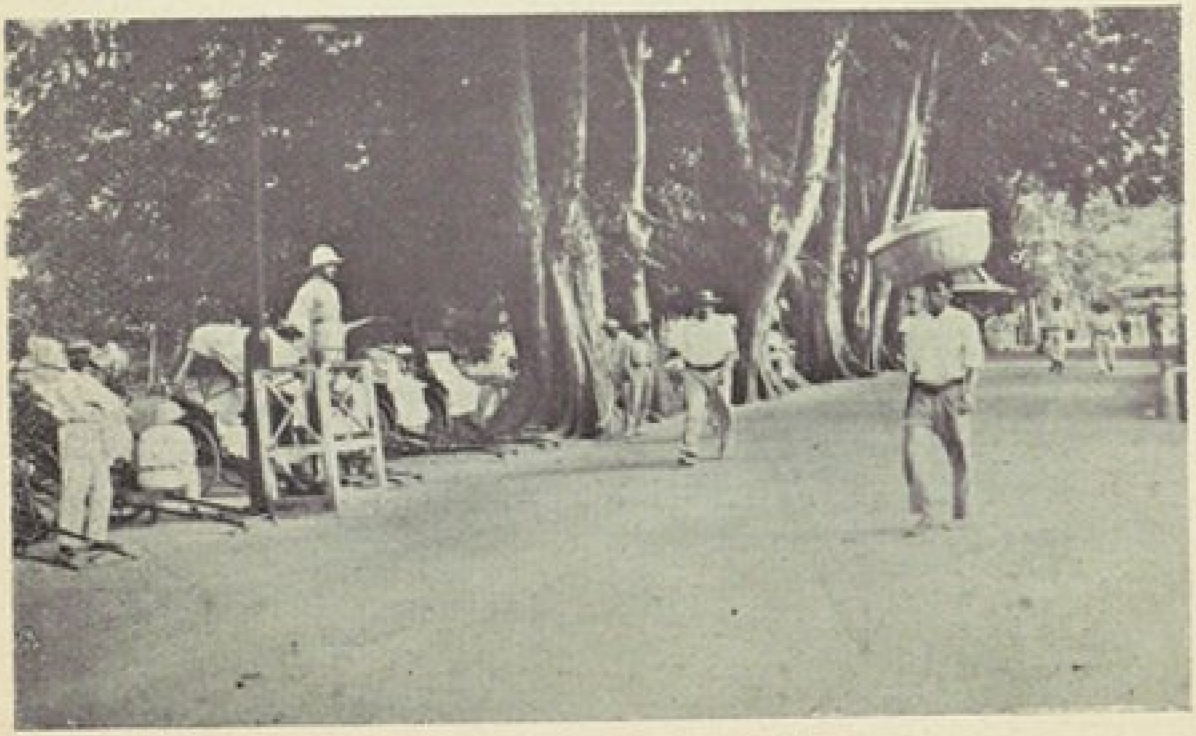
ما أشق الحياة بلانساء ، وما أشقها بصحبتهن ! أحب ما فيهن إلى نفسى أن يكن مصدر هذه الشكوى المزدوجة التى يكاد ينقض آخرها أولها . ومع أنى شديدالشعور بها ، مخلص فى التعبير عنها ، إلا أنى لست فى الحق صاحبها . وإنما أنا أترجم بتصرف كلمة اللورد بيرون المشهورة « أعجب العجب أن الحياة لاهى ممكنة بغير النساء ، ولا هى ممكنة بصحبتهن » Traduttore, traditore ! ؛ فقد تصرفت بالترجمة إلى درجة كشفت عن ضعفى وانحيازى إلى جانب النساء . وأين أنا من « داندى » القرن التاسع عشر تتخاطفه نساء الأرستقراطية الايطالية لجماله وجمال شعره ، ولشهرته وشهرة شعره ، فيلقى فى وجوههن بتلك الجملة العذبة القاسية ، التى تنطوى على التحقير والسخرية والحب والإعجاب بالمرأة التى لا تمكن الحياة بدونها . . . ولا بها !

إنما قلت « ما أشقى الحياة بلا نساء » ولم أقل « وما أشقاها بصحبتهن » ، بل « وما أشقها » . ولتفسر قارئاتى كيفما تفسرن ما تنطوى عليه هذه المشقة ، مادام الشطر الأول يدل على أنى قابل بكل ما تنطوى عليه صحبة النساء من مشقة ، فى سبيل ألا أشقى بسبب غيابهن عن حياتى .

كنت شقيا فى رحلتى بالمحيط الهندى لأن تسعة أشهر من حياتى انقضت بغير النساء أو كادت . وأرجو أن يفهم بلا لبس مقصودى من غياب النساء . فلست أعنى الأنثى لمجرد أنها أنثى . إنما المرأة عندى هى الزوجة أو الرفيقة أو الصديقة أو من نلتقى بها فى المجتمع أو من تمت إلينا عن قريب أو بعيد بصلة القربى . كل واحدة من هؤلاء زينة الحياة الدنيا مادمنا نشعر نحوها بعاطفة حب أو إعجاب أو احترام أو حنو أو عطف . هى « ست الحسن والجمال » التى تحدثنا بها الحدوتة « إذا ضحكت أشرقت الشمس ، وإن بكت اكفهر الجو وأمطرت السماء » . وليس من المهم عندى أن أكون « شاطرها حسن » ، مادامت ابتسامتها تضىء أرجاء نفسى التى تدلهم إذا ما بكت . هذه هى المرأة التى كنت شقيا بدونها فى المحيط الهندى ، لا لمجرد الأنثى .



تلك السفينة ، فى ميناء مسقط — عمان (أنظر صفحة ٢٣١)



شارع فى ماهى عاصمة جزائر سيشل (أنظر صفحة ٢٠١)

ولعلى فى رحلتى الهندية أقرب إلى السندباد البحرى منى إلى ابن بطوطة، فقد خلت رحلات السندباد السبع — أو كادت — من ذكر النساء (ماتت المرأة التى تزوجها فى الرحلة الرابعة ودفنوه معها حيا حسب عادة البلاد «حتى لا يتلذذ أحد منهم بالحياة بعد رفيقه . فقلت له بالله إن هذه العادة رديئة جدا وما يقدر عليها أحد الخ ...» . وتزوج فى الرحلة السابعة المرأة التى عاد بها إلى بغداد «وتاب إلى الله تعالى عن السفر فى البر والبحر») . وكانت كلها تبدأ بتجهيز المركب للتجارة ، وتنتهى بتحطيمها على شواطىء مجهولة . كما خلت رحلاتى العشر من ذكر النساء — أو كادت — وكانت كلها تبدأ بتجهيز السفينة للكشف العلمى ، وتنتهى بإرسال أذخار من المعلومات والنماذج إلى جامعة انجليزية كبرى . وكانت هذه المعلومات والنماذج فى الحقيقة كمعانى ابن الرومى فى المجاز. تغوص عليها أجهزتنا العلمية فتخرجها من طبقات المحيط المختلفة حتى أعماق خمسة آلاف متر . وإذا كانت رحلات السندباد السبع قد انتهت به إلى الثراء والنعمة ، فإن رحلاتنا العشر كانت انتصارا باهرا للعلم فى القرن العشرين . ولو أنها انتهت فيما يختص بشخصى على الأقل بنهاية تشبه ما كانت تصل إليـــه حالة السندباد فى

منتصف كل رحلة . وقد خرجت منها خروج أغلب الناس من المولد . ولست بمن يهتم بقليل أو كثير من الحمص لو لم يكشف لى غيابى عن مصر تسعة أشهر ، وجهادى فى سبيل تأدية واجبى ، جانباً من أتعس جوانب الطبيعة البشرية ، وظاهرة خلقية سوداء جعلتنى أجتوى الناس لأبقى على حبى للبشرية تلك هى ظاهرة الحسد لله فى لله ، الحقد الذى تبعثه فى نفوس البعض حتى كعكة اليتيم .

أما الشيخ الفقيه العالم الثقة ، النبيه الناسك الأبر ، أبو عبدالله محمد المعروف بابن بطوطه ، فقد امتلأت رحلاته بذكر النساء . كان ينزل بالقطر فيصاهر الصعاليك والعظماء والوزراء والسلاطين . حتى إذا ما آذنت ساعة الرحيل جعل يطلق باليمين وباليسار . وأذكر له الخير فى إحدى رحلاته — أحسب ذلك فى موضع ما من شمال أفريقيا لعله صفاقس — حين تزوج وحافظ على عهد الزوجية ، فجعل يتنقل من بلد إلى بلد بصحبة زوجه وصهره . حتى إذا وقعت بينه وبين صهره مشاجرة «أوجبت فراق بنته» طلق زوجته ، وهجرها وهجر أباها وهما يقرعان الكف بالكف ، على مسيرة أيام أو أشهر من بلادهما ! وبودى لو اهتم بحاثة الأدب عندنا بأمر النساء

فى حياة ابن بطوطه . فى رحلته إشارات إليهن لا تقدر بثمن . مثل «والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق وحسن معاشرة النساء .. ولم أر فى الدنيا أحسن معاشرة منهن . ولا تكل المرأة عندهم خدمة زوجها إلى سواها بل هى تأتيه بالطعام وترفعه من بين يديه ، وتغسل يده . وتأتيه بالماء للوضوء ، وتغم رجليه عند النوم . ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها . ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة . ولقد تزوجت بها نسوة (كذا !) فأكل معى بعضهن بعد محاولة ، وبعضهن لم تأكل معى ، ولا استطعت أن أراها تأكل ، ولا نفعتنى حيلة فى ذلك» . ويقول فى صدد الكلام عن أثر القوت الذى يتغذى به فى إحدى هذه الجزر «ولقد كان لى بها أربع نسوة وجوار سواهن ، فكنت أطوف الخ الخ» . أو «وكان الوزير سليمان قد بعث إلى أن أتزوج بنته» . وفى موضع آخر : «ورفعت إلى بعد أيام فكانت من خيار النساء . وبلغ من حسن معاشرتها أنها كانت إذا تزوجت عليها تطيبنى وتبخر ثيابى وهى ضاحكة لا يظهر عليها تغير» . أو «وكنت قد تزوجت ربيبة وأحببتها حباً شديداً» أو «ثم وصلت إلى جزيرة ملوك .. وأقمت بهذه الجزيرة سبعين يوما . وتزوجت بها امرأتين» .

أجل، هـذا الابن بطوطة كان رحالة حقا! لأن فهمه للأمصار لم يكن قاصرا كفهمنا، بل كان حكمه على الشعوب مدعما بتجارب أوسع مدى من تجاربنا ذات الناحية الواحدة.

لم يكد يكون للنساء شأن فى حياتنا على سطح المحيط الهندى. فالنساء — أحب المخلوقات إلى — لا تشغلن كثيرا من هـذه الصفحات مع الأسف. وكم كنت أود أن تزدحم بذكرهن، لا على طريقة هذا الشيخ المغربى المزواج، الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى، بل على طريقتى، وفى القرن العشرين الميلادى.

هذه الحياة بين السماء والماء على ظهر سفينة صغيرة. حمولتها ثلثمائة طن وطولها أربعون مترا. رجال فى رجال يضربون فى طول البحر وعرضه قرابة الشهر ثم يقيمون بالمرسى من خمسة إلى سبعة أيام ليعودوا إلى البحر بالتالى، وهكذا مدى تسعة أشهر. يشتغلون ما لا يقل عن العشر ساعات يوميا. وقد يمتد العمل ببعضهم من طلوع الشمس حتى الليل. كما حدث أن قضى البعض الآخر أربعا وعشرين ساعة ما بين مراقبة شباك، وفرز وتبويب، ونزول إلى المعمل وصعود إلى سطح السفينة. أقول، هـــذه الحياة تشبه

ما أتصور عن حالة الحرب . أو هى نوع من الليمان الاختيارى لبعض المجرمين السياسيين لا يراد إذلالهم وإن خلت معاملتهم من فكرة الرأفة بهم . وهى حياة تقرب الرجل من فطرته الحيوانية الخشنة . فيكاد ينسى مثله الإنسانية العليا . وقد ينصرف على البر إلى كل مايشبع نهمه البهيمى من أكلة فاخرة أوشراب مرىء الخ . ولكنه حينما يتصل على الأرض بأناس من ذهنيته وحضارته ، سرعان ما يتذكر الحدود والقيود الاجتماعية ، فيعود أليفا أكثر مما كان ، مهذبا إلى حد الحياء فإذا ما التقى فى المجتمع بنساء جميلات مهذبات ، كان لهن فى نفسه أثر الماء فى طق الشراق . بمجرد سماع صوتهن ولمس أطرافهن الرخصة وتقبيل أناملهم الناعمة .

يجب أن تقدر حالتنا هذا التقدير ، وتفهم تمام الفهم ليمكن إدراك شعورى وأنا أكتب الآن عن « غادة ممباسا »

وكان يمكن أن أقول غادات مستعمرة كينيا . فلم أر الانجليزيات فى مكان آخر من الأرض بمثـــل هذه الرقة والطراوة والأنوثة والنعومة . وهذه النعوت المتشابهة ، المشتقة واحدها من الآخر ، لم توضع عبثا . فالانجليزيات الجميلات يوجدن فى كل مكان . ولكنى لأول مرة أرى

كيف يؤثر المناخ على الطبائع والأجسام ، فيخلق جنساً جديدا من الانجليزيات لم أره لا فى انجلترا — وهذا طبيعى — ولا فى الهند ، ولا فى عدن ، ولا فى سيلان ولا فى مصر . والجنس ليس جديداً على الشرقيات أو الرومانيات أو الهنغاريات . ولكنه جديد على الانجليزية أن تراها بطيئة الحركة متكاسلة ، متراخية فى جلستها ، تسند رأسها إلى أكف عاجية شفافة ، وتمد ساقيها على مقعد طويل ، وبودها لو حولت نصف جلستها إلى ضجعة لذيذة . يتوسد فيها رأسها ذراعها البض . وهى لا تخفى عنك ضيق ذرعها بجلستها ، فتزحف وتتلوى كالحية ، تريك من تقاطيع جسمها تحت ملابس الصيف أكثر مما يريك الجسم العارى .

لم تكن كل نساء ممباسا الانجليزيات على هذه الحالة من سمو الأنوثة وانتصار الرخاوة الآسرة. ولكن بمجرد وجود هذا الجنس الجديد على انجلترا بينهن جعلنا نتساءل أنا وزملائى من البريطانيين عما إذا كنا حيال مصادفة من المصادفات ، أو أن جو أفريقيا الاستوائية خلق بحق هذه المرأة الانجليزية المزدوجة التأنيث .

كان يمكن أن أقول غادات مستعمرة كينيا . ولكن

واحدة منهن كان لها فى نفسى ونفس زملائى الانجليز أثر أحسبه تلاشى من نفوسهم ، وهو باق على مر السنين فى عالم مشاعرى . لذا أنا أتكلم عن « غادة ممباسا » .

نزلت إلينا من « الهنترلاند » فى « نيروبى » بصحبة والدها من ذوى الأملاك فى كينيا . التقينا بها فى الأسبوع الأول من سنة ١٩٣٤ بمضيفة ذلك العربى الكريم المحتد الذى يردد اسمه كل انجليزى فى أفريقيا الاستوائية بالثناء والاحترام هذه المضيفة « بنجالو » يقع على شاطىء أفريقيا فى مقابل جزيرة ممباسا القريبة من الأرض ، جعله السير على بن . . . محطا لرحال جميع أصدقائه من الشرق والغرب والشمال والجنوب . يقضون فيه أيام الضيافة على أصول الكرم العربى ، مع تمتعهم بكل معدات الراحة الأوروبية .

ذهبنا إلى السير على بن . . . وكان ذلك فى رمضان فاعتذر لنا عن عدم إمكانه الاشتراك معنا فى الغداء بسبب الصيام . وقدمنا إلى الفتاة ووالدها . وقد دهشنا أن تنادى بـ « مسز » مع مظهرها اليافع الرقيق ، وكأنها تخرجت أمس من معهد عال للبنات . واستأذن أن يتركنا فى قاعة المائدة على أن نلحق به فى حديقة « البنجالو » بعد الغداء .

وكانت تلبس فستان سبور أخضر اللون محبوك التفصيل، جعلها بيننا كأن روح الزمرد استحالت امرأة فكانت هى .

ولقد نسيت الآن حتى لون شعرها، ولكنى أذكر السعادة التى أفعمتنى بقربها — وكان من حظى أن أجلس إلى جانبها على المائدة — وأذكر صوتها أقرب الأصوات إلى صوت الطفولة البريئة ، لولا رخامة حزينة ونبرة خفية ، ربما فاتت على إحساسى وانتباهى دون إشارة منها عاجلة إلى حياتها فى « نيروبى » والأحراج حول « نيروبى » . وقد سمعت بخبر غرامها وزواجها من شاب ظهر لها سريعا أنه غير جدير بها فانفصلت عنه . هذه الطفلة التى لم تعد العشرين ربيعاً لم تترفق بها الحياة .

وخرجنا إلى الحديقة — أو بالأولى الجزء من الحرج الأفريقى الداخل فى ملك السير على — فكانت ملتقى أنظارى وأنظار زملائى . ولم يخف عليها أن أولئك الشبان من بنى وطنها، وهذا الشاب الغريب، وهم يعيشون عيشة عزلة تامة فى عرض البحر ، قد انتشت نفوسهم بسحرها وشبابها وأنوثتها فكانت نظراتنا تمعن فى توريد وجناتها المفعمة عافية تبعاً للحياة الجبلية التى تحياها . وكانت روحها ترفرف سروراً .

وكأن أرواحنا الوامقة قد عقدت الخناصر حول روحها تدللها وزاد من دلالها شعورها بفعل شبابها وجمالها فينا ، فكانت كالحجر الكريم يزيده الاجتلاء إبراقا ، وكثرة الأنوار إشراقا.

وقبيل الأصيل خلعنا ملابسنا اليومية ، وذهبنا فى ألبسة البحر ننتظر الغادة التى كانت هدية أفريقيا لنا فى رأس سنة ١٩٣٤ . وكان انتظارنا لها فى الجلاية الصناعية التى أنشأها السير على بن . . . فى ركن من حديقة « البنجالو » . والتى ينحدر الإنسان منها إلى حمام بحرى زين بالفسيفساء .

وجاءت « السيرين » تخطر فى لباس أخضر أيضا — ألم أقل بأنها روح الزمرد فى شكل فتاة ؟ — وهى سعيدة بشعورها أنها مصدر هناء أربعة من الشبان ، فى ذلك اليوم الباسم من أيام حياتنا .

وسوف تظل مطبوعة فى نفسى صورة ذلك الجسم الكامل ، على دقته ، وعلى روح الطفولة المنبعث من صاحبته ، وهو يسبح فى مياه بين الزرقة والخضرة وهى إلى الخضرة أدنى . مياه هادئة شفافة ، لا ريب أنها طالعتنا ذلك اليوم بأجمل مخلوقاتها . ولم أشك لحظة ، وأنا أرى « غادة ممباسا » تسبح فى مياه المحيط الهندى المنسابة بين الجزيرة وأرض

أفريقيا ، بأنها إحدى بنات الماء أحبت إنسياً يقطن مرتفعات جبال كينيا ، فغادرت عنصرها لتعيش على الأرض . وها هى ذى . إذ عادت إلى الماء فى غلالتها الخضراء ، قد أظهرتنا على السحر الذى فنى فيه عشاق البحار منذ بدء الخليقة .

قال صاحبى الكوماندر ف . . . ضابط الملاحة :

— عمّ حسن ، رو ظمأك ورطب عينيك ! أتراك تلقى فى كل تجوالك واكتشافاتك البحرية مخلوقا أبدع حسـنا وأكمل تكوينا ؟

— لماذا لا تخرج شباكنا مثله ولو مرة واحدة يا ف ...

— ليس كل من يشتغلون بعلوم البحار ملاحيس فن مثلك يا عمّ حسن . تأمل ما يفعل رئيسنا إذا ما صادت شباككم مثل هذه الغادة . سوف يكلفك بتحنيطها ووضعها فى حوض الأسماك المملوء بالكحول ، ويطلب منك أن تدون مذكرة بألوانها وأبعادها . ثم ينتهى بأن يعلق بأذنها بطاقة عليها اسم لا تينى سخيف مثل Domina ineptissima

— وسوف أغير هذا الاسم رضى العلم أم لم يرض .

فهى عنـدى Femina eterna, Donna superba, Sirena divina !

— أنتم سريعو الاشتعال أيها المصريون . من أى خشب أنتم ؟

— من « الأشراء » أنا ولى أن أتكلم عن نفسى . من أى حديد أنت يا ف . . . ؟

— لا تسلن فقد ساءت سمعتنا ، وحسب علينا ضبط عواطفنا برودا . ليس من شأنى أن أصلح سمعة البريطانى فى العالم .

وبعد بضعة أيام غادرت السفينة . . . ممباسا . وكنا فى هذا الميناء موضع حفاوة البريطانيين الذين لم يساومونا إعجابهم بتلك الباخرة الصغيرة عبرت إليهم المحيط الهندى من بومباى ، وقد قضت على سطحه نحو الأربعة أسابيع ، قطعت أثناءها خط الاستواء منتقلة من نصف الكرة الشمالى إلى نصفها الجنوبى . ولقد أقبلوا يزورونها ويشاهدون ما احتوت فى بطنها من أجهزة ، وما جمعته شباكها من عجائب البحار .

وكانت الأنظار ترمقنا من شرفات الجالية البريطانية صبيحة سفرنا . ونحن نجيب على التحيات البعيدة بصفير متواصل . وتابعت السفينة سيرها وهى تختال فى البوغاز الواقع

بين القارة وجزيرة ممباسا. وبينما الضباط منهمكون فى ملاحتهم الدقيقة، وف.. مشغول بخرائطه وأجهزته، كان أربعة من الشبان — ثلاثة من الانجليز وواحد مصرى — واقفين على ظهر السفينة، وقد انتحى كل منهم ركنا جعل يدير منه منظاره نحو « بنجالو » أقامه على شاطىء القارة رجل عربى كريم، يستضيف كل من يفد عليه من بلاد « الهنترلاند ».

هناك وسط حديقة « البنجالو »، وإلى جانب الصارى الذى رفع عليه السير على بن.. راية التحية لنا، رأت عيوننا جميعا وانطبعت على قلوبنا جميعا، آخر صورة لغادة ممباسا وقد وقفت فى بيجاما زمردية تلوح لنا بيديها، وترسل لعشاقها الأربعة آخر أشعة من ذلك الضياء السعيد نشره جمالها العلوى على حياة الشدائد التى نحياها فوق ظهر العباب.

حياة البحار

ركبت البحر كثيراً قبل أن أعيش تسعة أشهر بطولها على ظهر هذه السفينة العلمية ، فلم أعرف إلا القليل عن حياة البحر وركوب البحار . ذلك أن المسافر بالبواخر الكبيرة يعيش داخلها أكثر مما يعيش على سطحها . وهو فى اللحظات التى يتمشى أثناءها على « الكويرته » لمساعدة الهضم ، يلقى نظرة عابرة على البحر مرة مقابل عشر نظرات يحدج بها سيقان الغادة التى أسرت ناظرته فى قاعة الطعام ، وعشر نظرات يتساءل فيها عن علاقه هذا الرجل الشيخ بالشابة التى تخطر إلى جانبه ، وعشر نظرات إلى النصف الشقراء التى انتحت ركنا من حديقة الشاى تصغى إلى حديث ناعم ، يلقى به شاب ممشوق القد شعره لامع السواد ، وذراعاه ينبضان حياة وقوة خارج قميص ياقوتى ، قصير الأكمام مفتوح الصدر . وتتقصى ببصيرتك مقدار تلامس هذين الجسمين ، وكانا غريبين عن بعضهما

تمام الغربة حينما التقى صاحباهما على ظهر السفينة . بين البنج بونج ، وتسديد رماية أقراص المطاط والخشب ، وسماع الموسيقى ، وبين الإفطار والشوربة والغداء والشاى والعشاء بين الأكل والهضم تنقضى حياة المتنكب متن البحار على ظهر السفن ذات حمولة الآلاف طن .

وإنما يعرف البحر من يكابده على ظهر سفينة صغيرة طولها لا يتعدى الأربعين مترا ، وحمولتها الثلثمائة طن . على ألا تكون بختا جهز بمعدات الترف .

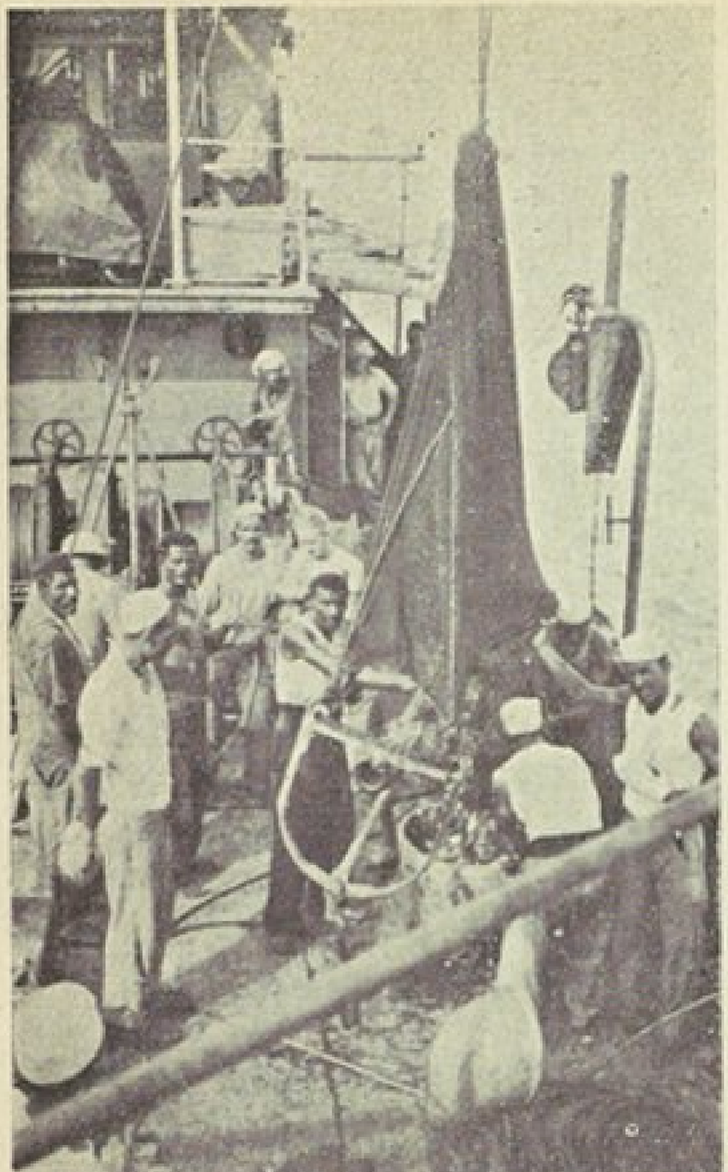
فأنت على ظهر السفينة الصغيرة تعيش مقربا إلى البحر . هو وحده أساك وعزاؤك . وفى أمواجه وما يضطرب بجوفه تسليتك وشغلك الشاغل . فاذا ما بعثت العواصف بنذيرها درت تربط المقاعد وتحشر أمتعتك المفككة ، وتعيد الآلات العلمية إلى صناديقها ، وتقفل نوافذك زجاجا وحديدا . ومر بك بحار السفينة بمفتاحه يوثق من رباط نوافذك وأجهزتك ومقاعدك . ثم صعدت إلى سطح المركب فى قبائك المطاط وقبعتك المسدلة على عينيك وقفاك ، لتطالع الأفق وتدرس ارتفاع الموجة ، وتقيس ضغط الجو ، وحرارة الماء ، وكمية الرطوبة ، وسرعة الريح . وتساعد ضابط الملاحة فى

قياس ارتفاع الشمس قبل أن يغيبها غمام النوء، أو تقدير انفراج زوايا النجوم عن الأفق قبل أن تمحوها حلكة الاعصار. وأنت على ظهر السفينة الصغيرة تسعى وسط العاصفة إلى عنابر البحارة لتواصل علاجك لمريض بالحمى ، أو تسكن من ألم بمغوص الكلى . تمسك بكل إطار وكل حاجز . وتنفض الماء عنك وقد غطتك الموجة التى اكتسحت سطح سفينتك المكشوفة . وأنت تصحو فى الفجر تطالع نجمة الصباح ، وتسائل أعماق البحر وقد هدأ فى اللحظة التى يعبر فيها قرص الشمس خط الأفق ، وكأن الشمس خارجة من منامة لها فى أعماق المحيط يتقدمها رسلها وخولها وحراسها ، إشعاعات حمراء أو ذهبية موشاة بالبنفسج . ولاشك أنك نسيت فى هدوء هذا اليوم . وأمام الصفحة الزرقاء الصافية ، ما كان من أمر العاصفة الهوجاء بالأمس ، العاصفة التى أحالت نومك كابوسا ، وقد تكون قذفت بك من سريرك الخشبي صريعا فى أرض قمرتك ، برغم الحاجز المرتفع الذى فرض فيه أن يحمى جسدك المنسى فى النوم .

تعيش قريبا من كل شىء فى سفينتك . تسمع صوت « ورديات » الليل تتبدل كل أربع ساعات ، وتعتاد دق الآلات

منتظما كأنه نبضات قلبك . نومك وصحوك رهينان بما قد يبدو لضابط الممشى من مظاهر البحر . فإنه ليلوم نفسه إذا لم يوقظك حين تمر سفينتك بنطاق البحر المضىء . وإنك لسعيد أن يفكر بإيقاظك من سباتك لترى على امتداد البصر أقيانوسا تتوهج أمواجه بأضواء فسفورية تكاد تطالع على نورها كتابك . وكلما تكسرت الأمواج على جوانب سفينتك أو مزق حبل « البركيتة » حجاب البحر كلما اشتدت الأنوار التى لا تشبه ضوءا عرفت إلا أن يكون فى أرقام ساعتك الفسفورية ، أو أجسام اليراعات تتوهج تبعا لتيقظ الغريزة الجنسية فيها . ولكن هذا الضوء إلى جانب توهج الأقيانوس كنقطة الماء إلى مجموع مياهه . وإذا أويت إلى مخدعك بعد ظهيرة يوم هادىء الريح ثقيل الحر ، فإنك شاكر للبحار الذى ينادى عليك من أعلى الممشى لترى أسراب الدلافين تسابق سفينتك ، وهى تتداعب وتتسابق ، قافزة من الماء بأجسامها السوداء اللامعة ، فى أقواس بديعة تكشف لك عن بياض بطونها . وإنك لتتأمل هذه الدلافين ، وتحاول أن تفهم كيف تأتى لها أن تسابق سفينتك التى تسير بسرعة عشر عقد ، دون أن يظهر فى حركات جسمها أقل أثر لمجهود .





حياة البحـــار (أنظر صفحة ٢٢١)

أهى حركة زعنفة الذنب تعمل فى الماء كما يعمل رفاص سفينتك ، أو هى عضلات الجسم تتحرك فى الخفاء فترسله كالأفعى ، دون أن يبدو خارجه أثر التلوى ؟ أم هى الوثبة خارج المـــاء يستمر اندفاعها داخله ، ويساعد التكوين الانسيابى للدلفين وجلده الأملس على هذا الاندفاع ؟

وأنت على سفينتك الصغيرة للبحر قبل أن تكون لنفسك أو لجيرانك . تلبس قميصا وسراويل هى كل مايغطى جسدك ولا تفكر بنوع القميص الذى يظهرك على أحسن ماتكون هنداما . أو نوع رباط الرقبة الذى قد يلفت إليك نظر الغادة شغلتك بجمالها منذ رأيتها فى قلم الپاسپور . قميصك من صنع اليابان تشتريه فى الجملة بما يساوى فى نقدنا قرشا . هو فانلة رقيقة تنتهى إلى أكتافك ، مفتوحة على صدرك وظهرك وذراعيك وأكتافك كأشد ما يكون عليه الديكولتيه تفتحا . وسروالك اشتريته بالجملة أيضا من التيل الأزرق الذى تصنع منه ملابس الوقادين . وحذاؤك من التيل الأبيض مطاطى النعل ، استحال على ظهر السفينة إلى لون أسود بفعل الشحم والزيت يتصبب من الونشات مخلوطا بطين رمادى أو أحمر ، جرفته أجهزتك من أعماق البحر البعيـــدة .

وقد لا يستريح قدماك فيه جديدا فتشكر اللحظة التى يعمل أصبعك الكبير فى طرفه خرقا واسعا مشرشر الحافة ، هو نافذة التهوية إلى قدميك . أو قد تفضل السير حافى القدم فوق « كويرته » مستوية من خشب التك ، يغسلها البحارة يوميا ، ويحكونها بالرمال مرة كل أسبوع .

أنت على ظهر السفينة الصغيرة للبحر وأعماقه ، وللسماء وأفلاكها ، قبل أن تكون لنفسك وجيرانك . للبحر سمعك وبصرك وإحساسك وكل روحك . هذا لون من ألوانه يبدو لك غريبا فتسعى إلى تفسيره . وهذا نوع من الموج وليس موجا ، فهو يشبه الصدر يعلو ويهبط فى حركة تنفس النائم الناعم . هو الأثر الباقى من عاصفة بعيدة ، هو آخر ما يطرق السمع من آثار الجلبة الهائلة فى أصقاع مترامية عنك ، هو « الكونفتى » و« السربنتان » وفوانيس الورق وطراطير السامرة والزجاجات الفارغة والكراسى المقلوبة ضحى المرقص الصاخب !

وما هذا الذى يبدو فى الأفق ؟ هذا « نافورة الماء » ، قبلة السحاب والبحر ! فالسحاب يمد شفتيه ، والبحر يمط فى شفتيه . حتى تلتقى الشفاه فى منتصف المسافة بين السحاب والماء .

وهذه الأعشاب السابحة يتتابع موكبها منذ لحظة، هي أعشاب «السرجاس». من أين أتت وإلى أين تسير؟ من يدرى؟ ربما كانت موكب العرس لبعض الأحياء البحرية. ألا ترى هذين الحوتين يرسلان فى الجو نافورتين من الماء إلى ارتفاع عظيم؟ هما ذكر «البتان» وأنثاه، حوت «العنبر» صبيحة العرس ولا ريب.

ثم ما هذه الأسراب الطائرة؟ كيف يمكن أن تكون جرادا أو طيورا ونحن على مسيرة أسابيع من اليابسة؟ إنما هو السمك الطيار يقفز من البحر فى أيام هدوئه الكامل ويحلق فى الجو ما احتملته زعانفه المنبسطة كالأجنحة. بضع ثوان من الزمن تحلق أسرابه مئات وآلافا لتعود إلى الماء حيث تعتمد على زعانف الذنب لتقفز قفزة ثانية وثالثة إلى الجو ثم تغوص فى اليم للمرة الأخيرة.

أنت على ظهر السفينة الصغيرة للبحر والسماء. لا للمغازلة والبنج بونج والرقص والأكل والهضم فوق المدينة العائمة حيث نقلت لك شركات الملاحة سريرك وحمامك وحديقتك وموسيقاك وكباريهك وسينماك، واغتيابك ونميمتك وغزلك وفضائحك. السفينة الكبيرة كازينو بين مدينتين وفندق بين

فندقين . فترة من حياتك الأرضية تقضيها ناعما . أما السفينة الصغيرة فهى مسكنك البحرى الدائم ، وما الإقامة بالموانى إلا فترة قصيرة تضطرك إليها حاجات العيش من ماء وغذاء ، وحاجات الآلات من فحم وزيت وماء .

حتى الميناء لا تعرف أيها المسافر على ظهر الكازينو العائم شيئا من سرها وسحرها . أنت تعرف بوليس الميناء وحماليها ، ولكنك لا تعرف غساليها وحلاقيها وقواديها . ولم تر بائعيها المتنقلين يسعون إليك فى فلك صغير ، نضدت على جوانبه سجاجيد إيران ، وعقود قهرمان ، وفيلة من الأبنوس والعاج ، وأمشاط الباغة ، والخناجر اليمانية ، إلى جانب صناديق الصابون وأحمال النارجيل وسراويل العمال وأكوام الأسماك . أنت تغادر سفينتك الكبيرة فتترك البحر وراءك وتنساه . ولكنك فى سفينتك الصغيرة تقطن الميناء يومين أو ثلاثة أيام ، فتعجب من البحر الذى عرفت وقد استحال بحيرة آسنة تسبح على سطحها بقعات الزيت . ڤينسيا قذرة مسودة ، ملأها دخان الفحم ، وسعت على سطح « لاجونها » اللنشات والسنابيق والهوريات تحمل الحواة والمشعوذين وتجار الحرير الهندى واليابانى ، وباعة الصدف

والحجارة الكريمة والساعات والأحذيةو الأحزمة والقبعات والفانلات والقلانس .

يوم حشر مائى اجتمعت فيه الملل والنحل وتبلبلت فى صبيحته الألسن . يلتقى فيه الضابط البحرى ، نشأ فى بيت مجد على شواطىء « ديفون » أو بين نجيل « إسكس » بحمال الفحم جاء من الصين أو أحراج سرنديب وغابات الملايا . ويتزاور القومندان الإيطالى لطراد إيرانى مع القومندان الهولندى لدارعة وصلت توا من بحار جاوة أو ميناء روتردام . سوق دولى تتجاوب فيــه أصوات الصفافير والأضواء الكشافة وألوان الأعلام !

ثم ماذا تعرف أيها المسافر على ظهر الباخرة الكبيرة من أمر المناورات الدقيقة التى أوصلتك آمنا وادعا إلى المرفأ ؟ بينما أنت ترقب على ظهر سفينتك الصغيرة كل حركة وكل دورة . وترى كيف تعــد الروافع وتلقى الحبال وتربط فى المراسى والشمندورات . أو كيف ترمى الأناجر إذا ما قدر لسفينتك الصغيرة ألا تلقى جانبا من الأرصفة تستند إليه وهل رأيت عنابرك تملأ بالفحم وقد أحرقت فى رحلتك التى استغرقت أسابيع كل ما امتلأ به بطن سفينتك من فحومات

بلاد الغال أوالبنغال ؟ وهل وقفت لحظة على سطح السفينة ورأيت كيف استحالت بشرتك البيضاء إلى لون الحمالين الصوماليين جاءوا إليك فى « برطوم » امتلأ بأكياس الفحم يحملونه إلى سفينتك فى صف هندى ، كأنهم بناة أهرامات بربرية وسط القارة المظلمة ؟

إذا لم تكن رأيت كل هذا ، فلم تعرف من أمر البحر شيئا ، وأنت أجهل بالميناء الغريب مما كنت حين غادرت ميناء بلادك .

تلك السفينة !

عرضت للكثير منا ظروف تأثر بمظهر شاب غني فقد ثروته ودار يتسكع على القهاوى مهلهل القميص ، ممزق البنطلون كالح الوجه والطربوش ، قذر اللحية ، مبقور الحذاء .

ورأى البعض منا أناسا كانوا ذات يوم بين سمع البلاد وبصرها ، فاذا بهم يتوارون وتنسى الأمة شأنهم ، ويعودون أفرادا عاديين خاملى الذكر ، يتحملون زوال مجدهم بكثير أو قليل من الهدوء . وآخر من أذكره منهم زعيم انزوى فى ختام حياته المفعمة بالأحداث الجلى ، فكان يرى فى ركن من أركان جامع صغير يؤدى صلواته بانتظام ، ولا يتصل بإنسان وقلما عرف المصلون حوله أن البلاد اهتزت يوما من أقصاها إلى أدناها أثر حركة احتجاج منه ، وفقدت فى هذه الهزة الكثير من حرياتها .

وقد يتاح لنا أن نشاهد سيدة ابيض شعرها وتقوس ظهرها

تتقدم إلينا طالبة نوعا من المساعدة ، فنلقى بنظرة عابرة على الوريقة التى تتقدم بها فاذا عليها اسم مغنية أو راقصة أو ممثلة دوخت القلوب فى شبابها ، وبددت الثروات ، و « أقفلت البيوت العامرة » كما كانوا يقولون .

ولقد أتيح لى أن أركب هذه السفينة العلمية المجيدة مرات بعد عودتها من المحيط الهندى . ومعاذ الله أن أقول بأن الصدأ أكل حديدها ، أو أن الحشرجة هى كل ما يسمع من صوت آلاتها . فهى لما تزل فى شرخ الشباب ، والعناية بها كبيرة كما كانت وأكثر مما كانت . ألوانها جديدة ، وأعلامها مرفوعة وشعارها تتألق نجومه الثلاثة كأشد مما تألقت فى أى وقت آخر بالمحيط الهندى . رجالها عادوا أكثر نظاما ، وأسلحتهم ترسل فى مياه الميناء بريقا خلابا . وقد أعملت فيها يد العناية والإصلاح فجعلت منها عروسا غضة الإهاب . وذلك بفضل النظام المحكم الذى تدار به فى أيدى ضباطها الأكفاء .

ركبتها فانطلقت بى إلى عرض البحر شامخة « البروة » تضرب بها العباب ضربات كأنها ضربات السيف . وسمعت وجيب آلاتها تدور كأدق ما تكون عليه المحركات دورانا ، وتدليت من « القش » أشرف على رفاصها فوجدته

يتابع ضرباته المنتظمة فى عنفها وهدوئها ، فيترك خلف السفينة أذيالا من الزبد تنفرج أمواجا تتميزعن أمواج البحر الأصيلة .

ونمت فى « قمرتى » فوجدت فراشها أنعم ملمسا وأنظف أغطية . ودخلت المعامل فوجدتها أنيقة مرتبة ، يدخل إليها النور من « ممبريطات » شفافة الزجاج براقة النحاس .

ومع كل هذا لم أستطع التغلب على الوجوم الذى تثيره أشباه المناظر التى قدمت بها لهذه الصفحة ، فى كل مرة تحتوينى السفينة المجيدة.

ولعلى لم أحسن التشبيه فى مقدمتى ، وكان الأولى أن أشبه السفينة فى عهدها الحالى بالممثلة التى فقدت كل شهرتها مع احتفاظها بثروتها وأناقتها ، أو بالزعيم الذى فاتته الحوادث وغلبته ، فاحتفظ بقوامه وشخصيته ، ولكنه تمسمر بزعامته، بينما الزمن يعدو بخطواته الجبارة وقد تركه ظهريا .

على أن توافق جوانب التشبيه أو دقته أمر ثانوى . مادام شعورنا فى كل الأحوال يتفاوت تبعا لقسوة القدر على من نرثى لأمره . وقد يكون رثاؤنا لمجده الدارس أشد من حدبنا على عوزه ومسغبته .

وشعورى بزوال مجد هذه السفينة كلما ارتقيت ممشاها أو انحدرت إلى باطنها ، هو فى قسوته أشبه بشعور المرء أمام حطامات الإنسانية التى عرضت لها فى أول هذا الكلام .

ذلك لأن الباخرة..... التى قطعت ٢٢٠٠٠ ميل فى طول المحيط الهندى وعرضه ، والتى دارت آلاتها بلا انقطاع أربعة أخماس كل شهر من تسعة أشهر متوالية ، قامت فيها بملاحة جريئة نيفا ومائتى يوم ،

تلك السفية التى قطعت خط الاستواء أكثر من مرة ، وحملت العلم المصرى وشعار البحرية المصرية إلى الأقطار المترامية، فكانت تثير بعنادها وقدرتها على ركوب البحر شعور الإعجاب حيث حلت ،

تلك السفينة التى حملت بعثة علمية من أهم البعثات البحرية فى هذا القرن ، وكانت جرائد العالمين تردد اسمها طوال رحلتها ، وإلى بقية العام الذى عادت فيه إلى قاعدتها بالأسكندرية ،

تلك السفينة التى زارها العلماء والحكام فى مصر والهند وسيلان وشرق أفريقيا وزنجبار وسيشل وشبه جزيرة العرب

استحالت اليوم كتلة من صلب لامع ، وحديد « مراشم » مدهون ، ونحاس متألق براق ، وخشب مغسول ممسوح ، وعدسات وآلات وشباك وأجهزة وأدوات تتوسد صناديقها المبطنة بالمخمل ، وتلتحف بأغطيتها من الكتان .

تتردد فى أرجائها أوامر عسكرية ، ووقع أحذية لامعة ، وصلصلة أسلحة جديدة .

هذا كل ما بقى منها اليوم . ولا عيب عليها ، فهى فى هذا شبيهة بغيرها ، لولا أنها تحمل على أطراف صواريها ، وفى بطنها ، وعلى جوانبها ، آثار جهادها المجيد ، وبلائها فى المياه الغريبة النائية . ولم تستطع — والذنب ليس ذنبها — أن تحافظ على مجدها الغابر ، أو تحتفظ بأكاليل الغار التى صيغت لها ، أو تبقى على شارتها الخضراء الطويلة ، حملتها فى رحلتها الأخيرة بشيرا بعودتها إلى أرض الوطن .

ولقد رأيتها تسترجع صولتها مرة واحدة بعد رحلتها التاريخية ، لتعود إلى مرساها مرة أخيرة ، أسيرة السلاسل والحبال ، رهينة الإسكلة والشمندورات .

أريد أن أشبهها بالطلل البالى ، بالمدن المهجورة ، بالمعابد

القديمة امحت دياناتها . ولكن كيف أجرؤ على ذلك ولما تزل باخرة تنبض بالحياة ، وتترقب اللحظة المناسبة لتعود إلى ركوب الموج العالى ، وملاقاة العواصف الداوية والأنواء المخيفة ، كأنها الجواد الأصيل يتوثب ويضرب الأرض بحوافره استعداداً ليوم الرهان .

ولكنها مع هذا ليست شبيهة بالطلل والمدن المهجورة والمعابد امحت دياناتها فحسب، بل هى كل هذه مجتمعة ، إذهى رمز لحظها العاثر جميعا .

فقدسافرت عليها فى مهمة ليست لها. كانت فيها كـ «هرقليس» يغزل لـ «أمفالة» ، وقد حملت هراوته، وتجلببت بجلد الأسد الذى اتخذ منه الجبار جلبابا .

وكان أن سمعت الهرج والمرج الذى اعتدت سماعه لدى تأهبها للخروج من الميناء ، وسمعت قعقعة السلاسل وهمهمة الآلات .

وخرجت إلى البحر تشطر أمواجه شطراً بأنفها الرومانى المشمخ. وألقيت نظرة إلى الخلف فوجدت الراية الخضراء ترفرف فوق صارى المؤخرة ، والشارة ذات الثلاثة نجوم منتشرة تحت لمسة الريح ، كالسهم يخترق الفضاء .

ولكنى عبثا درت أبحث فى أرجائها عن تلك الروح القوية التى سرت فى أعطافها تسعة أشهر. فقد خفتت أصوات الآلات العلمية . وهجرت المعامل . وخلت قمرات الاخصائيين إلا من ملابس القومندان منشورة تتهوى . وذلك السلم الصاعد من طابق الاخصائيين إلى ظهر السفينة ، عبثا جعلت أنصت إلى صوت الأقدام تهرسه صعودا وهبوطا فى الليل والنهار ، وقد حمل أصحابها نماذج الأحياء من كل عجيبة نادرة أخرجتها الشباك من بطون الأقيانوس . عبثا أنصت لصوت المسبر الكهربائى يقرع عشرات المرات فى الدقيقة ليسجل فى قمرة القيادة عمق البحر تحت السفينة . عبثا أنصت عند الفجر والزوال والغروب لصوت صديق الكوماندر ف . . . يطالع ارتفاع الشمس أو النجوم وهو يأمر: «استعد! اضبط! عشرة ، خمسة وخمسون» فيثبت الضابط النوبتچى خطوط الطول أو العرض كما تتبين فى زوايا الأسطرلاب وعدساته . عبثا أنتظر مقدم الزملاء إلى قمرتى لتناول كأس « الجن » اليومى قبيل العشاء!

تلك الحياة العجيبة الضاربة فى أرجاء الأقيانوس الواسع وسط ذلك المعسكر العائم ، بين جنود تسلحوا للفتح العلمى ، لا للمذابح البشرية ، خفت جرسها فوق هذه السفينة .

ولقد عاد كل منهم إلى وطنه وعمله ، وعادت سفينتنا فى نفوسهم ذكرى يزيدها الزمن ائتلاقا . ولكنهم تركونى هنا وحدى ، كالشاعر البدوى ، أبكى فوق الدمن ، وأستبكى الرائح والغادى !

تركونى أجوس خلال هذه القمرات والمعامل ، فتتألب علىّ أشباح ذكراهم حتى لإخال نفسى شبحا بين الأشباح .

إيه أيتها السفينة ! إيه أيها الجواد الأشهب !

هل قدر لنا أن ننوء بحمل الذكرى ؟ أو أننا سوف نعود سويا إلى خوض البحار النائية ، حيث للموج اصطخاب وهدير وللإعصار صرير وصفير ؟

انتهى